@ketab_n
Follow Me
22.12.2014

محمود تراوري

ميمونة

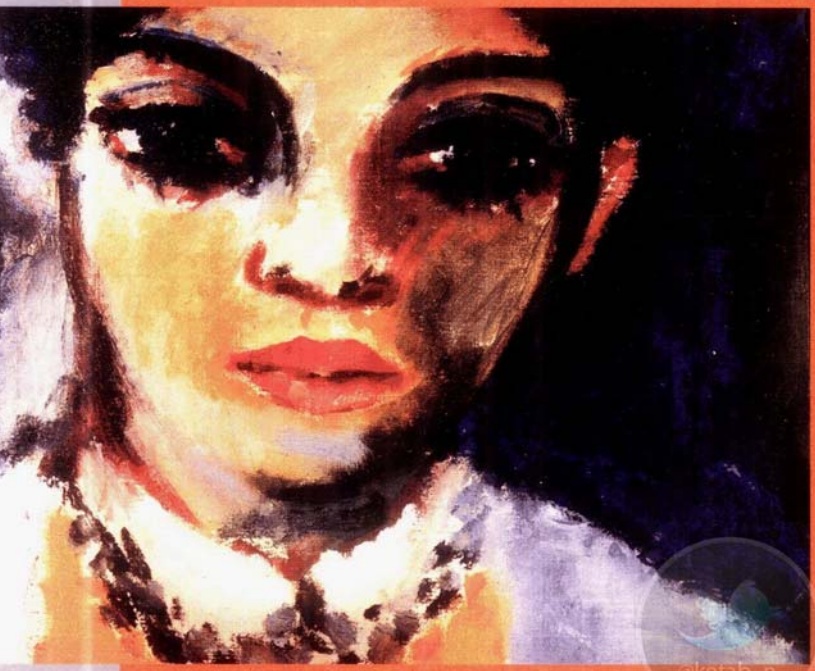

@ketab_n

رواية

محمود تراوري

ميمونة

رواية

Twitter: @ketab_n

ميمونة

Twitter: @ketab_n

اسـم المـؤلـف : محمود تراوري
عنوان الكتاب : ميمونة
الـناشـــــر : المدى
الطبعة الثانية : ٢٠٠٧

الحقوق محفوظة

Author : Mahmoud Trawri
Title : Maimouna
Al- Mada P.C.
Second Edition: 2007

Copyrights © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

Twitter: @ketab_n

إهداء

إلى " حواء أم صدقة "..

استثناء لا يكرره التاريخ الا صدفة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع
فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم...)

قرآن كريم

(فينا شئ من طبع الذئاب، وفي الذئاب شئ منا)

راع قديم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١ . مجس

(منّا قَـرَمْـبع). هكذا عـرفت، وبهـذا الاسم تلونت حيـاتي التي اختزنت مسافات من الزمن والبشر والارتحالات وندا ءات ارتخى لها الطريق. تحملت الضنك فبقيت. حفظت عن أبى عن جد أبيه أن (سر البقا ء كامن في تحمل الهزيمة واغتنام المرارات).

تناديني النسا ء الأصغر مني (ستي منّا). البنات والأولاد يناديونني (خالة منّا)، أولاد الجيران والذين أرضعتهم من البيوت التي جاودت فيها يقولون لي (ماما ميمونة). أحيانا تزعجني ندا ءات الأطفال حين يهتفون بجذل (جدة ميمونة)، ولكني لا أكشف عن تبرمي، ولا يدركه سوى صديقاتي اللواتي عايشن تعبي وتقاسمنه معي سنين طويلة حفتها أحزان نبيلة. وفي آخر العمر صرت أعرف بـ (منّا كبيرة) بعد أن حملت إحدى حفيداتي اسمي، وفاحت منه رائحة الأنهار. لي أمهات كثيرات رضعت من أثدائهن في العوالي، لا يرضين إلا حين يناديننني(سكينة)، ويعجبهن صوتي حين أشيل الكلام مجساً بصوت يطرح حبقاً وتشهدا، ويتطاير غباراً كأنه نحيب.

ولدت شائهة، في يسراي السفلى إحباط وخجل. مشيت عندما مستني الكلاب فعدوت تجاه الكعبة بصيحة أضا ءت سما ء مكة فلم يسمعها سوى (أبي قبيس) وخبأها موعداً للتلاشي.

Twitter: @ketab_n

حسنا (منّا) دلعي، و(قرمبع) حكاية ستدركونها عندما تتفجر الآبار وتلفظ جثثاً تاريخية من خوفها وجوفها. فحكايتي رائحة، أقترح أن تشموها، اصغوا إليها، تسمعون أشياء تفتح عيونكم لتلعنوا.

(ميمونة) اسمي، غير أن أهلي يحلو لهم تلقيب الأشخاص بألقاب عديدة، بعضها شديد الغرابة حتى يكاد ينطوي الاسم الحقيقي فلا يذكر إلا في المدارس وأوراق الحكومة. وطائفة منهم يكثر بينهم اسم (محمد)، فيمتلئ بيت واحد بأكثر من محمد. محمد أول ومحمد ثاني وثالث ورابع وقد يصل للعاشر.. حتى يعم البيوت فيض محمد. وعندما سألتني قدس : لماذا هذا الاسم ؟ لم أجبها. أدركت عجزي، ونهضت وهي تتمتم : (قناع، رمز، قناع، رمز) ؛ ثم غادرتني.

أهلي يحبون تسمية أبنائهم بأسماء تغمرهم بأطياف من سمعوا عن قدسيتهم يرونهم مندسين بين طيات التاريخ . ولكن تعرجات في ألسنتهم تجبرهم على نطق عمر (أومارو)، وأحمد (آمادو)، ومحمد (مامادو)، وإسماعيل (صومائيلا)، وعائشة (أيستا)، وآمنة (آمنتا)، وفاطمة (فاتوما)، وخليل (كيلو). تشيع في دنى أهلي وجماعتي أسماء عديدة نطت من الوادي المبارك فداخلت أدمتهم.

وحينا لا ينادون من تسمى باسم سابق تسمى به أب أو جد حياءً وإجلالا، فتسمع من أفواهنا حين مازجها زمزم القديم منذ سني المجاورة الموغلة في الزمان ، نداءات تطلق على الأولاد مثل " أبو، أبونا، أبّانا، أبّا، شيبة، جدي، امّيتا !! ". فيتغرب الأولاد في أسمائهم. حياءً، يجعلهم يتحرجون في مناداة الأطفال بأسماء سبق أن أطلقت على الكبار.

Twitter: @ketab_n

اسمي لم يمنحني الغربة، فالغريب يتآخى مع غربته بالارتحال داخله والإنصات لذاته، ولكنه الزمان الذي لم يحفل بسحنتي.

تكامل الماء في سحنة قومي وترهل. احتشدت الأعراق على سواحل بشرتهم فأترعتها بالنبذ والنار..، وكانت الدموع حصى يزرعون في دقائقه أناشيدهم رقياً للشمس وكشف ما تغافل التاريخ عن إيراده.

مسيرتنا ليل جبهته جوعى ومطارید، وأصواتنا خشب محروق بالغابة.

استطالت أشواقنا خياماً معلقة.. أعمدتها هواء، محشوة بأرمن وكرد ودروز وبربر وصَلَبْ وشركس ونوبة ونَوَرٌ يخرجون من الحليب، وأنا ناشبة في زند ظلال تتدلى من علٍ، أتهجى صحف الأنبياء، وأبجدية آدم. أنفخ جمرتها منذ أن كنت نطفة في رحابات السلالات العتيقة. أفضّ ما التبس وغمُض وحرَق واحترق وتوطد تحت الركام، نائياً مستعصياً على التدوين والإشهار.

سأكسر الرماح، أحطم الجدار الطويل الذي أخفانا قروناً منذ أن مس أبونا الزقوم، وأبلع القفار وأسفح حكايتي.. أنزع منها ما سال من دماء..أنتقي شوك الأيام. ثم أفتّق خرزة الصمت علّ لؤلؤها يضّاحك في المسافات التي مشيناها حتى انتفخ الطريق، وتشتت الأصوات جرياً خلف ما راكمت من أنين اشرق بنور الله، وأمطر سحاباً من نشيد ارتجت الغابة لتجلياته، ودس في الأقدام مسامير من قهر ولوز وأبنوس.

أبي جاء من أدغال الغابات ومناجم الذهب والنحاس والفوسفات والألماس والعاج والكاوتشوك والقهوة والكاكاو وزيت النخيل والقحط والقلوب التي تهفو للخلاص، وتتطلع لإجابة نداء شق الفضاء من فم

Twitter: @ketab_n

رجل وقف على جبل يؤذن في الناس ويرهب الأشباح بالقرابين. حين كانت الأسيجة عسجدا، وسبع حصيات كساها الجمر، في يديه يتعقب بها عدوه. كنت أسمعه وأنا في غيابات الماء، متسلقة مسافة مضاءة من بطن أمي، هو وعمي يتحدثان عن بِيضٍ وصفوهم بالنصارى، سرقوا أجدادهم، واقتادوهم حشرا في السفن، إلى بلاد بعيدة، وهم يهتفون (الله اكبر.. الله اكبر)، ولكنهم اقتيدوا عراة، ينزون حلما ودما، ولم ينج إلا من نجا، بعد أن صارت مياه الملح قبورا لملايين منهم. وشكلت أحراشاً من أصوات تتأوه في قيعان الملح قرنفلاً يزهو ويلمع في حضن الله.

يضحك عمي كثيراً وهو يذكّر أبي بحكايات شديدة القدم عن مقاومة جد هم لأولئك النصارى، وكيف كان يتحايل عليهم ويعدهم بعدم سماحه لرجال القبيلة استخدام السحر لمقاومتهم. أبي كان يذرف الدمع متذكراً خيرة الرجال المسروقين مع خيرات البلاد. وحين يطول صمته كبحر أطال انتظار صياديه يجول ببصره في وجه أخيه ويبتسم.

عمي لم يسمه أبوه. فعندما جاء طلب منه إمام القرية ألا يطلق عليه اسماً، لأنه سيكبر ويتلقى اسم رجولته من أبي، فلما كبر والفلك مواخر في البحر، دعاه أبى (عمر)، ورأى فيه شبهاً بالفاروق، يعدل فيتفيأ الشجر وينام. يكشف عن ساق الوردة ليتأكد أنه بشر يقع ويقوم، حين تستحكم أرض يغادر الكتاب ولا يتردد.

يسرد أبي الذكريات، وتحمّر عيناه من فرط القهر، ليرث نسله احمرار العين عند الضحك وملامسة الماء والتحديق في النهار.

يهدئه عمي مذكراً إياه بعظم النعمة حين ساقتهم الأقدار لبيته

Twitter: @ketab_n

الحرام، وزيارة مرقد الرسول عليه الصلاة والسلام وبدء المجاورة .
ويصمت أبي طويلاً، ملقياً رأسه على جذع النخلة، يهز الذاكرة وتهزه :
(خراب ودمار خلفوه ورحلوا، أحرقوا القرى والحقول، ونشروا الأوبئة خلال عمليات النهب، وغارات صيد البشر والحيوان ، فتوقف العمران، وتعطلت الزراعة. سرقوا الربيع من حدقات الأمهات، وفرحة العشب اقتلعوها من راحات ونهود الصبايا الجائلات في الحقول يغسلن وحمة شيطان أخرق لم ينتق فرائسه. حثالة الناس هم الذين تدفقوا علينا.. محامون فاشلون وتجار مفلسون وقوادون لا يعرفون إلهً إلا المال).

يهزه عمي، ينتزعه من شروده بخياله حين يناديني عبر أمي:
- ميمونة.. فين العشاء ؟
يتنبه أبي ناطقاً :
- ما زلت أتذكر دهشتهم وهم يعبرون الساحل واقفين أمام مسافات طويلة مظللة بصفين من أشجار المانجو والكاكاو، رأوا حقولاً مزهرة، قرى يسكنها رجال يرتدون ملابس زاهية.. أتذكر يا عمر!
يرد عمي وقد اغرورقت عيناه وعود الأراك يخضرّ بين يديه:
- كنت طفلاً، وكنت تكبرني. ومع ذلك كأني أبصر قومي يرفلون في الحرير والمخمل، أرى ملوكاً أقوياء، وحرفاً مزدهرة، وذئاباً تعوي في حناجرهم عندما يغضبون .
تجيء أمي حاملة طبقاً من الخبز والتمر واللبن والمرق، ثم أنصت لهما ومسافة تسلقي تشرق بكلام أبي. الإنصات للكبار رباني ومنحني مفاتيح الوجود. أنصت لحكاية (منسي موسى) التي التصقت بذهني

Twitter: @ketab_n

عميقاً. لأرويها بعد سنوات لأبنائي وأحفادي، لينفضوا عنها غبار التجاهل، وأنبههم ألا تأخذهم أقاويل تزيف ماضيهم، وتحتقر جذورهم.

يمضي الليل وأبى وعمي " سادران على الرمس ". متسامران يتبادلان الصمت والكلام والاستغراق في التأمل والذكرى.. تمر قرى وأدغال وسهام وأحراش ورماح وفهود وطيور أكاد اسمع تغريدها من ابتسامة تخاتلهما، وسفن معبأة بالحجيج والرقيق والفزع، لألوذ بأمي. تضع يدها مرتعشة على بطنها و تقترب مني، تبللني بالدموع، ثم تبدد فزعي بالحكايات :

(عاش نيهوريكا زمناً طويلاً في بلاده، ولكنه رأى فيما بعد أن بلاده لم تعد تلذ له، ففكر يوماً في الهجرة ومبارحة إقليمه إلى أرضٍ أخرى لأن المنطقة التي ينزل بها لم يعد فيها ماء، وكانت الماشية تنفق من شدة الظمأ، كما كان السكان أيضاً قد أخذوا يعجزون عن الحصول على الماء سواء للشرب أو للاغتسال، وقضوا زمناً شديد الوطء من جراء ذلك حين عاد الربيع فإذا بجميع الأنهار والآبار جافة، فعجزوا عن استنبات شئ من أرزهم أو خضرهم في موسم الربيع، وقلت كميات الطعام اللازمة للناس والحيوان على السواء، وعندئذ جمع نيهوريكا في أحد الأيام جميع قومه وقال لهم: اسمعوا يا أبنائي إننا فكرنا بأنفسنا وأخذنا على عاتقنا واجباً قاسياً حقاً، هو أن نشن حرباً على أولئك البيض الذين يسرقون الأرض، وفي تلك الحرب سنفقد كثيراً جداً. فأجاب أبناؤه :" اختر أيها الأب بسرعة بعض الحذرين الشجعان من الرجال، واذهبوا للبحث عن ارض طيبة، هذا ما نريده. أما عن الحرب التي تحدثنا عنها فنقول إنها عصيدتنا، فنحن لا نهاب الموت).

Twitter: @ketab_n

أما أمي فتهابه لذلك تصمت. وأنا ساهية لا أستوعب كثيراً، سوى أنها تحكي، ثم تبللني بدمع تخبئه عن أبي المستغرق في وقته مع عمي.

حين جاء أبي إلى مكة مهاجراً لمجاورة بيت الله، ما كنت موجودة. أمي كانت معه، تزوجها للتو، استأذن أمه مودعاً، مخبراً بأنه سيشد الرحال للمقدسات، أما أبوه فقد حط قبله هناك، يوم أن حبا وبكى. شغف أبوه بالحجاز، فشحذ شغفه، ومضى. ولم يعد لأن التماسيح كمنتْ له، فباركت لحمها بلحمه. عمي كان مع أبي صغيراً، لم يمنح اسماً بعد، ورهط من القبيلة. بعد خروجهم من القرية رافقتهم قوافل عديدة من قرى متاخمة ضاعت أسماؤها من ذاكرتي مع تعاقب السنين. خرجوا فارين من وحشية النصارى، ملبين نداء ذلك الرجل المدهون بألوان الطيف والموشومة يده بجذاذ حجارة هشمها لإحقاق تحديه. حنفي وقف على جبل (أبي قبيس) يؤذن ليأتيه المؤمنون رجالاً يصطحبون نساءهم وخلاصهم.

وفي يوم بعيد لا تطاله اختمارات السير الأول لذاكرة الطمي والبذور حين أيقظ الإنسان الكون بدبّه المتطامن.. بعد أن سكن الانفجار العظيم الذي شكلت كائناته فرشاة الشمس، وقت أن نضحت الوان الطبيعة ماءها وأخذت الأرض زخرفها وازّينت، وجعلت الجبال أوتادا والبحر أجاجا.

روت لي أمي ما سمعت نتفاً منه من خالتي وعمي عن مسيرة الأهوال نحو البيت على هدى الخطوة الأولى لأسلافهم الخضر وعلى لحن الإيقاع الأول الذي أصاخت له البريّة :

Twitter: @ketab_n

(... كنت اصغر أباك بسنوات لا أكاد أحصيها. عمري نحو ثلاثة عشر عاماً، خرجنا من القرية نمشي في جنح الليل، نخبئ في جلود عتيقة لحماً مجففاً نسميه " شرموط "، ونحمل أوان خشبية محشوة بالذرة، وبضعة أنواع من فواكه مجففة. حبات المانجو قطفناها خضراء لم تستو بعد، ينضجها الطريق، فهي من الفواكه التي تنضج بعد أن تفارق أمها، نقطعها أجزاء صغيرة، نلتهمها مع قطع من خبز الذرة. ولنا في الذرة مآرب أخرى. فمنها نصنع " المَدِيْدَة "، نخلطها بماء ساخن ونسكب عليه لبناً حامضاً وسكرا. ومن الدخن أيضاً يصنعون شراباً بارداً، يشربونه في الصباح يسمونه " فرو فرو "، ويكثر شربه في صباحات سابع الأطفال بعد أن يتزين باللبن وتذوب فيه حبات السكر الأحمر. لم ننس أن يكون معنا لوز بنوعيه، محتمٍ بقشوره، ومطحون، يعطينا أروع أنواع المرق، عندما يمتزج بأوصال من لحم الماعز والبقر. وفي أيام أخرى كانت " الويكة " التي نحصل عليها من تجفيف البامية، نغمّس فيها قطعاً من العجين الحار نسميه عصيدة.ومرات تفرحنا حبات اليام مستوية في زيت اللوز. يعصرنا الزمان فنعصر زيتا وأناشيد لزجة.

معنا رجال يحملون سهاماً ونبالاً، وفي السودان تعلم بعض هؤلاء الرجال شرب المريسة المصنوعة من الذرة، ومن الدخن أيضاً. معظمنا كان يتسلى بمضغ عصارة نبات مر، مرارة حبات " القورو " أخف علينا من مرار قطع مهولة من الزمان.

المهم، الأكل ليس حكايتي، فقد كان الشوق للبيت خبزنا اليومي.

بعد مسافة من القرية التي اجتزنا حدودها مع انسحاب النهار،

Twitter: @ketab_n

وصلنا غابة اقترحها الرجال محطاً للمبيت. أنخنا رحالنا، وشممنا رائحة نهر لا نراه. كان النهر فاصلاً بيننا وبين ظلال أقوام نراهم من بعيد. لابد من اجتياز النهر. صار هذا أول الحلم.

سرنا شرقاً باندفاع عجيب، مجتازين غابات تخفي أحجام أشجارها الشمس. يدهمنا الليل، فتزداد صعاب التقدم مع الأوحال والظلام وصوت كائنات يقسم بعضنا على أنها الأشباح. ينهرهم عيسى، ويحثهم على التلاوة قبل أن يخاطب دليل القافلة :

- هذه الغابة بظلامها عقبة في طريقنا.

يرد عليه الدليل مسفراً عن ابتسامة شديدة البياض :

- لكن النهر قريب !

ننسى أصوات الأشباح، نتذكر أن النهر أول حلمنا الآن. عندما بلغناه، رأينا بعض أهلنا يقدمون بزوارق شاحبة، صنعوها من جلود الخرتيت والتماسيح، في كل زورق أسرة صغيرة. ناديناهم حينما اقتربوا، ولكنهم شتمونا بحدة وغل. وفهمنا بعد خطبة عجت بالانحياز من الدليل، أنهم على غير ديننا. في أمكنتنا تحدد خطوط وشلوخ على الوجوه ديانات الناس.

مضوا بجوارنا مملوئين بالشتائم. تجاهلناهم، حتى اختفوا في ظلام الغابة والنهر الذي يبنون قراهم على ضفافه.

كان لابد لنا من عبور النهر لاجتياز هذه القرى. لم نر إلا القرى الخالية فقد هرب منها أهلها. كانت القرى تعج طرقاتها بأوراق الموز وقشوره التي تحول بعضها إلى خشب، أغلب غذائهم من الموز حتى أنك إذا صافحت أحدهم تكاد تنزلق، وأغنامهم كثيرة العدد لكنها تعاف

Twitter: @ketab_n

الموز، لذلك ينتابها الهزال عندما تحجم السماء عن دلق مائها. مكثنا عند الشاطئ البعيد، وبعثنا قارباً يحمل رجاءنا عبر النهر إلى الشاطئ الذي كنا عليه، وكنا نخشى الليل والظلام والوثنيين. حين بدأت أطحن قشور الموز الجافة راغبة في اختراع أكلة، شرع رجالنا بقرع الطبول، وتابعنا سيرنا، والآخرون يعبرون النهر، تاركين الفزع يغرق في مياهه التي كان يخالطها ضوء القمر فتزدهي الفضة. عند اقتراب الزورق امتلأ الوقت برائحة النهر.

ذهبت مجموعة تتبع الرائحة على هدى نقيق الضفادع، ثم عادت مبشرة بالماء. التبشير بالماء عندنا كان له قيمته. حملنا الجرار وتوزعنا مجموعات. على الضفة وقفنا و أبصرنا تلألؤ القمر على صفحة النهر. توضأنا وملأنا الجرار، ولما هممنا بالعودة لأعماق الغابة بوغتنا بقارب انبثت منه أضواء أخذت تسلط علينا بقسوة. أصابنا الهلع. بيد أن أباك اخذ يتمتم هامساً " وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون "، وأمرنا بالانبطاح والصمت، وأشار علينا بالزحف نحو الغابة، مفتوحي الأعين ويقظي الحواس. امتلأنا محبة لأنفسنا وللدنيا فأنقذنا الأمل. تعمق الصمت وظل عيسى واقفاً وبرفقته نفر من الأقوياء الأشداء الذين أمرهم بتجهيز سهامهم. نوغل في الصمت والأمل معاً، وعرفنا وقتها أن الصمت والأمل يكبران معاً عندما يحتدم الخوف. يقترب القارب من الساحل فنوقن أن الكلام والصمت مجرد حبل يتدلى ويرتفع ؛ قد يراه العدو في كلا الحالتين، أما الأمل فكلما ارتفع عالياً أخطأنا العدو وكانت حظوظنا في النجاة أفضل. فبانت مجموعة لا تزيد عن خمسة من البيض، لم نتحقق من عددهم،

Twitter: @ketab_n

تأكدنا من كونهم أعداء، وما أن اقتربوا حتى انطلقت السهام وامتلأ الليل بصراخهم. كان صراخاً عالياً مقززاً أفصح عن بشاعة وهلع عظيم.

وهنا قرر أبوك أن نحمل الجرار خاوية، وان نمضي سريعاً بنفس المستوى من الصمت والأمل، بعد أن يسحب القارب لإخفائه داخل الغابة، وترك الجثث يلتهمها جريان النهر.

أخرجنا شيئاً من الطعام، لتتجمع السحب. رحنا نرقبها بحنين مع شئ من خوف أقل . أبرقت السماء بصورة هزت أملنا عنيفاً، فصاح الدليل بلسان مضطرب أعاد الخوف لمنسوبه الأول :

- احفروا حولكم، وضعوا الأشياء في أعالي الشجر.

من هول الموقف بدا الشجر العملاق كأنما ينحني لتناوله أشياءنا. انقضت مسافة من الليل. ذهبنا في نوم قلق، وتعالق بعضنا مع قامة الشجر. هطل مطر قليل، ثم كف بعد أن غمر الأرض وصعّد روائحها، ثم توقف. ومع الفجر قدم " الفلاليت " بجرارهم المملؤة باللبن. هؤلاء أفضل من يتعامل مع اللبن، يجيدون صنعه ببراعة، نسميهم بدو الغابة ينتمون لقبائل الفولاني وينتشرون في كل مكان. خالطونا، وارتوينا من لبن لم يتغير طعمه، ونشأ بيننا وبينهم ربيع، حين عرفوا أننا متجهين للحرم، فانضموا للقافلة.

ما أن مشينا مسافة حتى بوغتنا بنمرين، أحدهما صادته السهام فأردته قتيلاً، والآخر هجم على أحدنا وعضه بشراهة. أمسك بصالحو من يده، وأطاره في الهواء، مكرراً التطويح به أكثر من مرة كأنه قطعة من غزال هرم، ثم ألقى به بقوة بعد أن توقف عن الصراخ الحارق. زحف صالحو وهو يئن معتمداً على بطنه يجر جسداً راعفا، منهوك القوى

Twitter: @ketab_n

وأملاً خائراً، والنمر يراوغ السهام التي قل عددها رعباً، ليلحق بصالحو ويقضمه من قدمه وشتت صوته في الأعالي حتى حلقت الطيور بعيدا يتبعها فزع . سحبه للغابة ثانية ودمه يخرج لبناً، يتطاير مع الغبار، وصيحاته تملؤنا هلعاً وحزنا ؛ والنمر يفر به فريسة. بكينا عليه طويلاً حتى غمرنا الفجر على مشارف قرية كان أهلها يصلون.

استقبلونا ببشاشة. جلس الرجال معاً يخوضون في أحاديث شتى، ويفتتون قصصاً في صحن الليل. تألم شيخهم لقصتنا في النهر، ونبه إلى أن طريقنا تعج بالمشاق، ثم استل حكاية من جرابه عن رجل (**انجب ولداً، ثم أصيب هذا الرجل بمرض، فلما اشرف على الموت سأل ابنه "ماذا تفعل بعد أن أموت وانتهي ؟ " فقال له إنه لا يعرف. فقال له : " عندما أموت اقطع اصبعي الخنصر، فإن تلك الخنصر ستنقذك، فإذا ما مت وانتهيت ضع تلك الخنصر بالقرب من الباب، احفر لها وادفنها هناك ". ثم مات الأب، فقطع خنصره وحفر قبراً في وسط ساحة القرية. ولما انقضى على موت والده شهر، استيقظ مبكراً فرأى في القرية بيوتاً قد نمت كأنها المحاصيل حول المكان الذي يعيش فيه).**

ثم قال لأبيك :

– سأرسل نفراً من قريتي يبحثون عما تبقى من رفيقكم الذي افترسه النمر، لدفنه في مكان عندما تعودون من الحجاز ستجدونه حقلاً من الذرة واشجار الموز.

تضايق ابوك ولكنه لم يعلن ضيقه.. اكتفى بقوله :

– ربما لن نعود !

سأله الشيخ :

Twitter: @ketab_n

- لماذا ؟

فرد أبوك :

- رحلتنا طويلة...

تدخل والد صالحو، وطفرت الدمعة من عينيه وهو يذكر أن صالحاً عشق اللبن، طعامه وشرابه الذي لم يعرف سواه منذ أن ولدته أمه في الصحراء وتوفيت، فتركته وحيداً يرضع من البقرة ، حتى عثروا عليه، ومن يومها لا يدخل فمه إلا اللبن. لذا لم تكن لديه القوة التي تؤهله لمقارعة النمر الذي فتك به. يصمت والد صالحو بعد أن يغلبه النشيج والكل مصغ اليه في ذهول :

- كان حلمه أن يسقي الناس في الحرم لبناً مع الزمزم.

يهدأ الشيخ ويتأثر الكل بصمت. حين يفيض الصمت عن حاجة المساء، يتحدث مجدداً عن الغابة التي ظلت مجهولة للنصارى، أسرارها مغلقة عنهم وأسئلة النيل ترهقهم أزمنة طويلة وهم يبحثون عن منابعه ومصباته. كانت الملاريا تقف لهم بالمرصاد ، إذا نزل عشرة منهم بالساحل فمن المؤكد أن ستة منهم سيموتون، حتى غدا " مقبرة الرجل الأبيض " اسماً شائعاً للمناطق المتاخمة سواحل الغابة. فاكتفوا بالمتاجرة وهم على سفنهم راسية قرب الساحل خشية من النزول للشاطئ.

تقلصت مساحة الضيق عند أبيك، وراح يسرد متذكراً، عثمان دان فوديو وكيف جيّش قبائل الفولاني، مطلقاً صيحات الجهاد التي واصلها من بعده ابنه محمد بلو ثم أحمدو لوبو الذي اشتبك مع الفرنسيين حينما غزوا جهات الغابة.

تداعت من الجراب حكايات تفاصيلها ألم، حتى غالبهم النعاس محملاً بأطياف الفزع والأهوال والكوابيس والأمل الذي لا يرتخي.

Twitter: @ketab_n

خالتي روت لي كيف استمرت معهم الأهوال، وكيف سقط اكثر من عشرين رجلاً في الطريق، منهم من افترسته الحيوانات، ومنهم من تزوج وآثر البقاء مؤجلاً السفر حتى نفاد الالتذاذ، ومنهم من سقط اعياءً والتهمه الموت.

ثم تلاقت قوافل كثيرة لم تلبث أن افترعت إلى فصيلين ، في ظروف لم أتبينها.

مجموعة جنحت شمالاً صوب البربر والتحمت بالمغاربة، ثم مدت الحلم تجاه اقوام ذاكرتهم فضاء مكتو بالشعر والكلام الحساني، ناديناهم شنقيط. يرحلون ونرحل معهم صوب الفراعنة، ويتعززالالتحام مندفعين نحو الأرض المباركة قبل أن تهيمن عليها لسعة الأختام السلطانية، ثم حطوا في السودان يبنون أعشاشاً وأكواخاً في الأطراف بعد أن نفد زادهم فميزهم الحَلَب بالغرابة.

أعراق مختلفة يفصلهم ملح البحر عن بغيتهم، وجدوا في العربية أداة تفاهم وتواصل، الدين يوحدهم، والأشواق لمكة تزيدهم تآلفاً. كانوا دائماً يهتفون:

- الدين الذي لا يوحدنا لا حاجة لنا به.

كان آدمو شيخاً للهوسا يشارك أباك في الإمامة، يؤكد على هذا ويقسم على أن لغة القرآن المنتشرة في مساحات الغابة قربت بين الناس. لآدمو طيبة منحته قوة خارقة، يستطيع بها فهم لغة الحيوان والطير والحشرات والأشجار والأحجار وكائنات أخرى لا نراها، تشبه تلك التي كنا نسمع أصواتها، فيحثنا أبوك على التلاوة. كان أكثر ما يبرع فيه محادثة الثعابين، خاصة تلك التي تطير فتبث الرعب والهلع في المناطق

Twitter: @ketab_n

التي جمعت كل هؤلاء النافرين من غرب الغابة. وفي يوم صحا القوم، وآدمو يهم بمغادرة المكان مصطحباً زوجه. لم يجرؤ أحد على سؤله. عدا جماعة من النمل سألته :

- إلى أين ذاهب يا ادمو أنت وزوجك ؟

- .....

- إذا تركتما المكان، فسنعيش دائماً في تعاسة.

- أترك المكان لأني مكره عليه، فإذا أردتم الانضمام فمرحباً.

انضم النمل اليهما، وما كادوا يتقدمون قليلاً، حتى قابلوا طيرين انضما اليهم، يطيران فوقهما بأغانيهما، حتى وصلا إلى مكان مطير.

فجلسوا يبذرون حبوباً، وبقوا يعملون في حقول القطن والذرة، حتى لحق بهم الباقون يزرعون ويحصدون. ومن يوفر منهم زوادة الطريق، يمتطي البابور نحو الحجاز يحدوه الشوق. البوابير صغيرة يتكدس فيها الناس حشراً كما الدواجن، لكن هدف الرحلة يصرفهم عن الالتفات لضنك يخلقه تحاشر الأبدان ويخلق دفئا بحميمية سر الأديان. واحداً تلو الآخر قرعوا باطمئنان عظيم أبواب الوادي المبارك. ركبوا البحر والطيور تنفر من فزعهم، تكون ادعية ترف، ترف، ترف، ترف، ترف.....

ترف ولا تحدد المصائر أو السلالة التي سوف تقتنص ما رف من طيور، ما صدح وما انتزع من صداحه. صداح البحر المخيف لم يرهبنا. كان ملحه يحدث اللهفة فينا ويعمق اليقين بأن الأمل كافٍ كي تستمر الحياة.

مضينا وأهلنا يلاحقون موج بحر لا يطرش، بنغمات تناهت إلينا :

قالوا الحجيج قطع..

قاصد نور البقع..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢ . الحلول

صفق القلب للحجاز وسارَ
شفه الوجد للحبيب فطارَ
واقتفت إثره الجسوم غراما

فترى الركب في الرمال، واصلين إلى نور البقع، توحدت أفئدتهم، واختلط الوجدان المتعدد باللسان المتباين، بسحن متمايزة، لكنها لا تتنافر، لتسكب شيئا جديداً، لا يخلق الا هنا.

لم ترو لي أمي لحظة الوصول إلى الحجاز، وظلت هذه النقطة غامضة.. غائبة في حكاياتها تماماً، دائماً كانت تكتفي بعبارة (.... ووصلنا مكة)، ثم يتمعّر وجهها، يكسوه وجوم غامض لم يفسره لي أحد، عدا خالتي اكتفت بخبر مقتضب " أن أبى تزوج في السودان ". فوجدته مبرراً لتجاهل أمي قصة الحلول في مكة.

قالت خالتي تكمل ما سكتت أمي عنه (تتابع ركوبنا، طائرين مع الريح، منغمسين في سعادة لا تحد، تزعق الريح في أذني بنشيد أردده كأن الجن يحدو به. لن نكون غرباء بعد الآن، أبدا، أبدا. إخوة لنا عن اليمين، واخوة عن اليسار، كلهم لا نعرفهم، ولكن أحداً ليس غريباً عنا، فنحن في فرحنا وشوقنا جسم واحد ،آدمو يخاطب عنا الرمل والريح،

Twitter: @ketab_n

ويصغي له موج البحر ، فتغني الطيور من حولنا، وتصمت الفزاعات حين يرتل عيسى " وقل ربي أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا "، العالم أمامنا فسيح وفي قلوبنا تتألق شرارة من النار التي اشتعلت في قلوب الصحابة، يوم أن جاء نصر الله والفتح). وبدأت الدموع تبلل حديث الخالة، لحظة أن أحسست أنها على وشك الخوض في قصة الوصول.

ظللت فترة اسأل واستقصي. حتى تجمعت عندي أطراف لحكايات، نسجت منها ألواناً لأطياف الرحلة.

(.. كان هناك طريق شهير يقولون عنه طريق الحرير، يعفر ترابه وغباره وجوه القادمين من بلاد البخارية، وتلك البلاد التي أخبرتنا بعض الروايات القذرة التي قالتها الفقيها صفية السناري أنها تخفي في تربتها ياجوج وماجوج. رغم أن الشيخ المشاط كان يخالفها ويؤكد أن ياجوج وماجوج منبتهم حيث نبت مسيلمة، وحيث تملؤ أرضها أعشاش من طين تسكنها أفئدة من صوان تعادي البهجة.

على مقربة من السودان، كان طريق السويس والعقبة يتماسان مع طرق تهرّب بعض الحجاج إلى طرق شاقة تسوخ في رمالها الناعمة الجمال، ويتيه في بيدائها المسافرون، فلا يهتدون الا بأنصاب من الحجر بنيت على الطريق للاهتداء للحرم. تصعد القوافل في العقبة وتنيخ فيها للراحة، حيث يقبل الحجاج المصريون، و يَقبلون معهم الحجاج المنسلين من بوابير السودان. في العقبة يلتقى الحج السوري بالمصري بالسوداني، فينحدرون إلى قرية قديمة قامت على أنقاضها العقبة. فتبدأ انقسامات الحجاج ما بين ذاهبين براً على ظهور الجمال،

Twitter: @ketab_n

وماخرين عباب البحر راكبين مراكب شراعية ، ليكونوا بمأمن، فلو خاطروا وسلكوا طرق البر لاصطدموا بغوغاء اعراب ألقاهم التاريخ على قارعته، يجدون في مرور قوافل الحجيج فرصة لسد جوعهم) .

الفقيها بنت السناري، أخبرتنا في كُتَّابها و حكت لنا ما يخيف من تلك الهجمات، وكنا نسألها : " هل هؤلاء مسلمون"؟

تمتعض ولا تجيب على سؤالنا، بل تضيف (كانوا ينهبون الركب عن آخره، يقتلون الرجال ويأسرون النساء، كان أبسط ما يتعرض له الحجاج أن يدفعوا جعلاً للبدو أو يقضى على القافلة بأسرها) .

بنت السناري رددت كثيراً بأسىً أدركته طفولتنا : الجهل والجوع يفسدان النفس والدين، لقد كانوا جهلة شرسين.

أنا تعرضت لهذه الشراسة، لكني اذكر الآن أن أمي أخبرت أن الحج انقضى، فآثر عمي وأبى البقاء مع من بقي لاستكمال زيارة المقدسات والتفكير بجدية في المجاورة .

عمي كان متأففاً يلح على أبي أن الجوع مستفحل، فيسكته أبي (بأن الجوع تهوّنه مجاورة البيت).

في المدينة المنورة كنا على أطراف بساتين اشتراها اسكيا محمد احد ملوكنا الذين ارتبطوا مع ليون الأفريقي الشاب العربي الفاسي النشأة المسمى الحسن بن محمد الوزان الذي أسره قراصنة صقلية وسلموه للبابا ليو العاشر فحوله البابا إلى المسيحية، وخلع عليه اسمه المسيحي ليو وشجعه على الكتابة عن بلدنا فصاحب الاسكيا.

الاسكيا لم يقنعه نيل الملك بسيفه ومواهبه بل اتجه إلى تأييد سلطانه باعتراف شرعي من الخليفة العباسي، فحج إلى البيت سنة

Twitter: @ketab_n

١٤٩٤، بعد أن فشل في بسط سلطانه على بلاد الهوسا. وأراد أن يزيل من أذهان الناس رحلة منسي موسى، وما خلفه من خيال وعظمة، فبالغ في عطاياه وكرمه وتصدق في الحرمين بمائة ألف مثقال من الذهب، واشترى بساتين في المدينة المنورة وقفها على أهل تكرور.

أمي قالت إن اسكيا أول حاكم في بلدنا أرغم النساء على اتباع قواعد الإسلام في اللبس ومنع الاختلاط، وعين شيخاً للإسلام في تمبكتو.

هنا على أطراف هذه البساتين حيث لملمت الحكايا عن الماندنجو أحمد صمدو والهوسا والفولاني وعثمان فودي المنحدر من عشيرة التورودي واحمد لوبو الذي ادعى الانتساب إلى البيت النبوي وماسنة وجني والفونج وأمير كوتسينا وصلاته الطيبة بجلال الدين السيوطي الذي أقام في كوتسينا يعلم الناس قبل أن يعود إلى مصر. سمعت عن صنغي وكانجابا وكبّي من امبراطوريات الهوسا التي اصل اهلها مزيج من أم كشناوية وأب من صنغي وملكها " كانتا " الذي حكم كشنا وكانو وجوبر وزاريا، كما غزا برونو وتصدى لقوات اسكيا محمد.

في هذا البستان تروي أمي أنها عرفت الونقرة بفصائلهم وعشائرهم والبرقو والموشي والزبرما والبرانوة والولوف وفوتا. ذاب الكل في الكل، تزاوجوا، وتصاهروا. تداخلت الأعراق، وتوحدوا في هوية متناغمة. انتموا للحرم، وعززوا ألفة اغتسلت حروفها الأولى بماء النيل.اطمأنوا بصدق حيناً وبسذاجة وتفريط حيناً آخر لـ (إنما المؤمنون اخوة).. يفسد الإيمان عندما تداخله السذاجة فيصير عبئاً على البشر يحقن أقدامهم بأكياس من رمل شرير. كانت كلمات آدمو تتردد بيننا كالقرآن.

* * *

Twitter: @ketab_n

تعـرف أبي علـى خلق من بلاد جـاوا والهند وحـضـرمـوت الذين يتزعـمهم (السقاف) المتحدر من سلالة الزهراء، ولكنه أتى من جاوا مكتنزاً بالذهب، يغدق منه على أهالي الحرمين، ويشتري به الأمان من العرب ليحموا القوافل من أعراب جياع يتربصون بالقوافل.

يداخل أمي ضيق وتبرم. فتروح خالتي تكمل : أن السقاف كان يجمع نفراً من جلسائه يحتسون شايا أخضر، في متكأ يلاصق جدار البقيع، ويذكرهم بثالث الحرمين، وواجب تقديس الحجة.

مضى أبي شارداً بخياله وعمي يسأله نازعاً آراكه :

- أتكون تفكر في القدس ؟

يعرف عمي تعلق أبي بالكتاب، وعشقه الترحال في سير الصحابة وولهه بهم، ورغبته الواسعة في اقتفاء آثارهم وافتتانه بالتاريخ الذي كأنه أساطير، منذ أن رافق المنسي وعاد معه مختالا.

يهز أبي رأسه بإيجاب، ثم يطرق.

يدب القلق في عمي ويتسرب لأمي. وأنا لم أولد بعد ولكني قلقت معهما . بينما شيخ جاوا يطمئن الجميع بأن الحرب خامدة، وان الله سيحميهم بحمام ينبت من بيت المقدس، فيه بقايا البراق، تتلبسه الملائكة، ويسري في عروقهم ليمنحهم أياماً من استبرق و سكينة.

كان طائف من الخوف قد طاف بالمجموعة.. حيرة الباب العالي منتشرة ، ولكن أشواق الحجيج لبيت المقدس أعمق من الخوف.

أزمعوا أمرهم. تجهزت القوافل على مدى أيام. نجح السقاف في إقناع عدد كبير من الحجاج التكارنة والهنود والسليمانية والشناقطة والبخارية، ولم يجد عنتاً في اقناع حجاج جاوا الذين يعتبرون طاعته واجباً دينياً.

Twitter: @ketab_n

صباحاً نادى منادٍ في المناخة :

- يا مسلمين سننطلق بعد سويعات.

حزم أبي عدته البسيطة، ودع عمي، واستودعه أمي، وقبل أن يرخي يديه اللتين رفعهما إلى السماء قال :

- لا ندري كم سنمكث هناك.

وأنا متعلقة في الرواق الأخير من الحبل السري، أرى مفازات من خيبر وحقل والعقبة. أسمع أجراساً في الناصرة وبيت لحم.. بينما أسراب حمام البراق تنفض، تهزج بريشها حزنا.

تغدو القافلة تتزود بالتمر، وأبي يروي للشيخ السقاف ما غاب عنه من تفاصيل رحلة المنسي، ويؤكد له أن ابن بطوطة نزل ضيفاً على شقيق جدي، وعبر معه الصحراء الكبرى حتى وصلا إلى حدود النيجر، ودخلا مملكة مالي ، وتحدث عن سلطانها منسي موسى.

وأنا في المشيمة أتعلق، أفر من الحبل السري، من رحيل أبى، ويكبر في ذاكرتي النيئة منسي موسى.أرفس برجليّ اللتين تنزان سؤالاً: من يكون هذا " المنسي " ؟!

ثم اهدأ، وعندما يتكاثر رغاء الإبل، وتصايح الأعراب يتناثر في المناخة متناهياً إلى العطن، حيث الخباء مختلطاً بروائح الأعلاف والروث والحصار. أتقصف.. أصير غابة تؤذي بطن أمي بفوضى أشجارها. والغابة عند أهلي تضفي شيئاً من المهابة والغموض، تغمرها الحيوانات والنهيرات، وغدران الماء تجري بكثافة، خاصة تلك التي يُرى أولها، وآخرها دم اخرق ينبع من جبل بعيد. أتألق كالغابة أصواتا، وأسئلة، ورفساً : من يكون هذا المنسي ؟!

تقف أمي على أطراف المناخة تسترجع خرير الينابيع، وحيرة النهر،

Twitter: @ketab_n

وألق الغابة، والحيوانات والكواسر والطيور والزواحف. تلتحم بي، ثم تجأر، وكأن الطلق اقترب.

لقد لونتني الغابة بهديرها. غادر الإنسان الأول الغابة ولكنه ظل يتلفت إليها بحنين. لابد وأن أمي أنتجت بويضاتها وهي منفعلة في الغابة.. مؤكداً أن طمثها الأول ، كان وهي تفر من فرس النهر، بعد أن كسرت جرار الماء ولاذت بعطف الغابة. كل أهلي صنعت الغابة انفعالاتهم.. كل شئ في الغابة.. الألوان، روائح الزهور، الطين الذي يداهمه المطر فيخرج طيوراً زاهية، يحاكون زهوها في ملابسهم وأثاثهم ومساكنهم. الغابة منحتهم أسرار الرقص، وقادتهم لبوابات الطبول التي يرفعونها إيقاعا تندس فيه الشمس حين يتطاول وجيب الحياة، فيفتحون بأصابعهم المتشققة عيون الفجر التي أغلقها الدم. طبول عالية يمصون منها معنى الحياة، وابتهاجها فيرقصون تعبيراً، بموسيقى الطبول كانوا يتفاهمون مع الطبيعة جيداً .تقول أمي إن الأغاني تتعالى وقت الحصاد. يغنون طوال النهار، تفريجاً عن يأسهم، وحملاً لأحلامهم الغضة، ولكأن الأغصان لن تمد أعناقها للنور ما لم تسمع قرع الطبول. دائماً كنا نفكر بأن الحياة كامنة في الحنجرة.

عندما دخلت الكتّاب عند الفقيها صفية السناري، تعلمت التعبير، ولكن بلا طبول. كان الكف طبلنا، والحنجرة نايا . وبعد سنوات طويلة من رحيل صفية، سمعت قدس تردد (أن الأسود هو انسان الطبيعة، يعيش مع أرضه، إنسان حسي متفتح الحواس، لا يقبل الوساطة بين الذات والموضوع، لكنه يقبل كل شئ أنغاما وروائح وإيقاعات وأشكالا وألوانا، انه يحس الأشياء أكثر مما يراها).

لم أفهم حرفاً واحداً مما قالت، وعندما صرخت فيها بحب :

Twitter: @ketab_n

- إحنا عمي يا بعيدة !

ضحكت وهي ترد عليّ :

- ما ادري يا جدة هذا سنجور يتجلى.

تركتها حتى لا تستمر تسخر مني بكلام لا افهمه، ولم اسألها من سنجور هذا !

اقتربت مني، أدارت أذني اليمنى وسألتني بخبث :

- شكلك حلو يا ستنا ميمونة وأنت بخرص واحد.

غضبت، وحسبتها تسخر مني. ولكنها في الحقيقة كانت تتساءل عن سر الخرص الواحد. تجاهلتها. فراحت ترشوني بالحكايات التي تمثل رابطاً اليفاً بيننا.

- اسمعي يا جدة ، سأحكي لك شيئاً جديداً.. ذات مرة هب السكان، كثرت ثوراتهم، ثم جمعهم بوشيري بن سالمين، عربي أمه زنجية، يتمتع بالشجاعة والدهاء، تحدى الخواجات وهاجم الساحل وأبادهم. فأرسلت حملة أدارت صراعاً مريراً حتى قبضوا على بوشيري واعدموه....

كنت قد نعست، وتركت الحكاية في جراب " قدس " ، التي لمست أذني طويلاً، قبل أن تمضي لشأنها.

* * *

عمي يمسك بوالدتي هلعاً. بينما أبي يقترب منه.

- يقولون إن القدس بعيدة.. ولكني عزمت على زيارتها. ستلد زوجتي، إن ولداً فمحمد، وإن بنتاً فميمونة، وإن لم أعد لا تنس تاريخنا، اجعله حاضراً أمام مولودي . إن لنا تاريخاً يا عمر.

ختم بها وداعه، وخط سطراً في الغياب.

Twitter: @ketab_n

٣ . أخفاف جمال تسيخ

بقيت بساتين اسكيا تخضّر لطوائف التكرور، بعد تحرف الاسم مع طول العهد في الحجاز وصار (التكارنة) . يعمل على فلاحة البساتين أناس من النخاولة، كائنات غامضة هطلوا في المدينة قديما تشيعوا لأبي السبطين، يهبطون فجراً من حوش السيد، وبقايا من أثر الصادق تميز سحناتهم. والمدينة تسيجها بوابات تغلق في الليل: ما انغلق النخاولة على ذاتهم أو أن واقعا مريرا عزلهم، عزلة لا تختلف عن عزلة التكارنة. تعاني المدينة كل يوم من سالب نهّاب. فتنبت لها سوراً، يحجز النهابين خارجها. نهابون يتأخرون عن غزوها إن ربعت الأرض، وإن جاعوا هتكوا حرمتها. قوافل الحجاج لا تغادر إلا في النهار خوفاً من غارات الجياع. بينما الأحوشة عاجة بالرجيعي، غناءً ينسرب من أفواه نساء وبنات منعزلات عن الرجال. يتندى جدار الحوش بالغناء ، والصوت عذب ينتظم :

(يا سيد ياللي ساقك يشبه الما..

ويش أسوي كيف يخرج الما من الما)..

أحوشة تحمل أسماء العبيد وكرباش والجربي والرشايدة وشلبية. والعنبرية تسمي أحوشتها .. سنان، أبو جمر، أبو دراع. وجنوب المدينة يحفل

Twitter: @ketab_n

بالمراكشية والتاجورية والبربورية.. بناءات يفرضها خوف الهتك، فيرهف سمع الرجال للرجيعي و يصيخ جيداً لدبيب الأقدام خارج حصون الليل.

أضرحة البقيع، تبللها دموع الفرس، منذ اقتراب انطفاء الشمس إلى السحر، يبكون فاطمة وحسينها و" لزينب نوح على فقد شقيقها"، وتسافر دموعهم صوب كربلاء، تُحَالِفُ الكاسرين ظلام أهوار البصرة وتعبها .

ضواحي المدينة يملؤها سهل يعج بالرمل ، ومجمدات بركانية مكسوة بالسبخة. تتناثر البساتين وأحواض الماء في الأطراف، من أعالي الحرة بين قباء وقربان، يسيل ماء بطحان. يفد عليه الرعاة من الأعراب، يستقون من الينابيع هم وماشيتهم، ونساء في الخباء يرعين ويطهون ما تيسر من لحم ويأكلن لحم بشر بنمائم فاقعة، والجدات خيبات مقصورات في نتوء المراعي ويبسها، والختم المبارك يضئ ماء البئر في قباء. بينما العقيق يعانق حرة الجنوب، وشرقاً لا يتعب العاقول يروي غدران أحد وما يضم من حزوم.

في منتصف القعدة، يتهيأ أهل المدينة لليلة الكنيس. ينخرط عمر معهم. يؤدون الفجر جماعة، و صبحاً يكنسون الحرم. يغدقون على شوارع المدينة فرحة لا شية فيها. ثم يذهبون للانشراح في حدائق النخيل. بخور الهند في المجامر يجلو شحوب الرواشين. تفيض المزاهر بأيدي المداحين في القرين. يعلو الذكر والنشيد، وأعين النساء والأطفال تشخص نحوهم، في يوم عظيم، والفيروزية تتيه بالفاغية، التي تفك أسر عطرها مع الغروب، فتضمخ مساءً صغيراً، يمتد بين عشائين، تشرد بعطرها من زهر الحناء فيتضوع النسيم، ويلقي في قلوب أهل المدينة رقة وعذوبة. والحلوى تتناثر في سواعد الأعراب، ليكفوا عن الجرح.

Twitter: @ketab_n

لهؤلاء الأعراب نفوس كالينابيع، قد تتحول إلى مستنقعات يملؤها العكر عندما يجوعون. الأرواح تشابه اصفرار المروج القديمة حين تتبدل على اغتباطات الريح . الأعراب أشد تبدلا ، صارت نفوسهم عكرة، عندما تعطل تدفق الينبوع الذي ملأ الأسلاف. الناس كلها تتوعر نفوسها وقت احتياجها الخبز.

بعض من هؤلاء الأعراب كان يتسلل إلى الجانب الشرقي للمدينة ينخرط في بساتينها يرش مضغة في جسده من خضرتها، يتحضّر ولا يحقد على من تحضّر قبله، حيث يتسامق شجر نخيل يطرح تمراً، يسّاقط من شجر يعمر مائة عام قبل أن يشيخ.

يعمق عمر صحبته مع حمزة النخلي. أحد العارفين سر النخلة.. وأجمل من يوقد نار المزمار، حين يلعلع النبوت عالياً بين أصابعه، متلهفاً للقشاع، والدم، طارحاً، أمهر جوش، يرمح كفرس لم يفارق الاستوحاش ولا يهمد إلا حين تختزن رئتاه غباراً عبقت ذراته بالدم .

حمزة ثرثار. " ول عليك.. هرّيج غبرا" يمازحه دائماً عمر، وصمت العارفين يوجع حمزة. يبثه أسرار التمر:

(شوف يا خويا.. هادي حلية تتاكل زهو ورطب وتمر).

(والحلوة ؟) يسأله عمر دون تبرم من هرجه.

(تتاكل بلح، وأحسن رطب هو الروثانة، هادي اللي نخزنها تمر، زيها زي السويدا والهرمزي).

(هادا اللي ناكله طول السنة ؟).

(لا يا فقي.. الحلوة، والبرني، والشلبي، والصفاري، والشيخة، هما اللي نخزنهم طول السنة).

Twitter: @ketab_n

(ما نسيت شئ ؟). يسأله عمر.

(إلا يا واد. اصباع العروسة).

يضحك، ويستمر يسال : (كيف ؟ أية عروسة ؟).

يرد عليه وهو يغني : (ست العرايس يا عنبرة) ويضيف مالئاً فمه بالانتشاء (نسيت العنبرة أحسن تمرة هي والعجوة).

يفكر عمر (إننا نشبه التمر.. أنواع كثيرة). بينما بجوار النخيل ينبت على حياء ليمون حامض، وبتلات من الحناء، تخفيها الشمس، ويخبئها تآلف سموق النخيل مع الأضواء التي تتسرب خفيفة، مساء من شموع توقد في الحرم.

شموع كبيرة تشبه شموع الكنائس، تقف إلى جوارها ثريات بلورية، تتدفق على الحرم من أثرياء المسلمين في الهند وجاوا ومصر والمغرب والشام وتركيا وغرب غابة أرهقت السمرة كاهلها. يتوافد المسلمون من كل الجهات شوقاً إلى الحبيب. ينزلون في التكايا القائمة على هبات المحسنين.

يجلس عمر كواحد من رجالات الغابة القدامى، وصياً على البساتين وبعض الأوقاف، بعد أن تفتق مكرا ودهاء . يحضر دروس الحرم، تتوسع علاقاته مع الأعراب والعرب، ويذيع صيته بين المجاورين.

يدخل عليه زول من شرق النيل، يحدثه عن ضائقة. يجلسه عمر ويبادره متسائلاً كي " يروز مخاضته " :

- (هل صحيح أن أحد الحجاج الصالحين مر بمناطق شرق النيل الأزرق في طريقه للحج فتزوج بنت احد قادة العرب في تلك المنطقة ولم يمكث معها زمناً بسبب رحلة الحج، فحملت، وقد كان الزواج في غياب أشقائها، فلما عادوا قرروا قتلها بتهمة حملها سفاحاً ؟).

Twitter: @ketab_n

- صحيح يا حاج عمر، لكن والدهم ومعه أهل المنطقة شهدوا بصحة الزواج من أحد الحجاج، وقالوا بأنه سيعود بعد انتهاء موسم الحج.

- وهل عاد ؟

- نعم. عاد هذا الحاج وقد ولد له ولد سماه " رافع " ، لرفع أمه من القتل، فصار جداً لفروع كبيرة من رفاعة.

- وأنت من أين يا زول ؟

- .....

صرخات الحامل تفتك بالسؤال، وتجعل كل من في البستان يهب لنجدتها. كان عمر يحار وزوجة أخيه قد أتمت حملها و أنجبت ميمونة.

مضت سنة ملأها القحط والجدب وقلة الأرزاق، والرهط الذي ذهب يقدّس الحجة لم يعد. أخذت الأنعام تنفق، وكثير من العيون يجف ماؤها، جوع يتقافز في أرجاء المدينة. حدد الهزال ملامح الناس الذين اضطروا لتجفيف روث البهائم وانتقاء حبات الشعير منها. صاروا يأكلون أي شئ.. أوراق شجر الليمون والنعناع.. أوراق العنب.. اصطادوا القطط والكلاب فأكل منها معظمهم وعافها بعضهم. البدو لم يجدوا حرجا في التهام الجرابيع ولحم الثعابين المجفف، وأكثرهم وعورة امتلأت معدهم بما رق من لحم الحجيج.

" مناور " بائع الحطب والإقط في باب التمار، استراح إلى جوار عمر بعد إتمام الولادة. همس في أذنه :

- منذ يومين وصلت قافلة من مكة أنهكها الجوع، تضم بينها عشرة ورعان من العبيد الصغار. مات أهلهم في الطريق، وبعضهم تاه عن آبائهم، ولأن البرم والجنيهات التي لديك معدودة، والدنيا مسغبة، وش

Twitter: @ketab_n

رايك لو سرينا بهم لجدة، فأثرياء الأشراف و التجارالحضارم و شيوخ الأحساء يحبون يربون العبيد ؟!!

فزع عمر وأطرق. حدثته نفسه بأن (مناوراً هذا، سليل تلك القوافل التي مرت بالغابة، وقطفت سمرتها، وكحلها، وحنطتها، ولياليها المكتنزة برجال مسروقين، يحرثون صحاري ومزارع، لا ينبت فيها إلا الصبار والاستعلاء وتعيس الخزامى والنساء المذعورات في الخباء الوالدات للمؤودات).

كانت الغابة حقلاً لتوغل قوافل العرب من أزمنة قديمة جوعاً وشوقاً للعاج والأجساد الطافحة بالبن والكحل وبهيم الليل. يحصلون على ما يشتهون عن طريق التجارة وليس قوة واغتصابا، من كل مكان يبدعون في النخاسة، يحيونون البشر، شراكسة.. أرمن.. كرد.. فرس، وسمر بلداء لم يمتلكوا أناشيدهم، ولم يصيخوا السمع لحظة لنداء أرواحهم المنخورة بالبراءة الساذجة، أو الثقة فيمن حولهم.

القوافل توغلت إلى أعماق الغابة، ووجدت مجالاً خصباً لتجارة العاج والرقيق. تنمو القوافل بمرور الوقت سالكة معابر تجارية تمتد من كلوة إلى بحيرة نياسا، ومن الطرف الجنوبي لزنجبار إلى بحيرة تنجانيقا و تبني لها مستقرات تزود القوافل بالمؤن والبضائع، وهناك الأوربيون.. بريطانيون وبلجيك والمان وفرنسيون وبرتغاليون يشنون غزوات على القرى بمساعدة أفاقين انتهازيين من نفس المنطقة، ويعودون بمجموعات من الرقيق إلى ساحل خليج عمان. يمر في الأفق سعيد بن سلطان حاكم عمان وسفنه المتحكمة في مياه الساحل. يمر كل غبن أسواق النخاسة والتدخل البريطاني لغسل أقدامهم في مياه الخليج بعد أن تتسرب إليه حرارة رجال الغابة.

Twitter: @ketab_n

يستمر عمر مطرقاً يمازج ما بين الجوع وطعم الشعير النابت في الروث، وطعم لحوم الكلاب الجرباء. تبرق في عينيه شهوة انفراج. يتفق في التفاصيل مع مناور، ويذهب للإتيان بالغلمان المنحدرين من سلالة رجال الغابة. يجلس الغلمان منهوكي القوى، يطمئنون له، يطعمهم تمراً يابساً أذابه في الماء وخلطه بالشعير، ولبناً مجففاً ناوله إياه مناور، ويطمئنهم بأنه سيعديهم إلى مكة للبحث عن أهاليهم، ويغمز بطرف عينيه لمناور.

ينسق مناور مع مجموعة من عشيرته، ويختارون الليل موعداً للرحيل، ومتكأً لفرائس اصطادتها افخاخ حسن النوايا وسذاجة المنطق، وربما الإيمان المطلق !!

في الطريق طوقتهم الصحراء بظلامها الأسطوري وشساعتها الموحشة.. هسيس.. هسيس..

فصمت، وأصوات هوام تتقاطع مع عزف كئيب لريح مشتتة.

كانت الأصوات خامدة، لا تسمع إلا همساً ناتئاً، وسيئاً من هسيس صحراء موجوعة، وفحيح أفاعٍ مختبئة في جحورها، نظرات وهمسات مريبة بين مناور ورفاقه ، بدأت الشكوك تساور عمر، الهمس المتقاطع مع ظلال أيادٍ تتراخى وتترافع، منحه رؤية لوجوه تضمر ما لا يطمئن، ولكنه قمع ظنونه، واتحد مع حلمه ووحدته. تحتويه الوحدة وتحاصره، تطبق عليه، تخنقه، ولا أحد حوله ساعتها يدرك معنى الوحدة.

في ثمالة الليل يقترحون الاستكانة قليلاً على ساحل الرايس. حدّق مليا في العدوتين الدنيا والقصوى، تراءت له أشباح بلال وحمزة ووحشي وصوت متكسر لهندٍ وأخويها الصريعين (حريتك في كبدة نيئة يا وحشي).

هنا الرايس .. " كان ابن فاطمة في القرن الثاني عشر من ميلاد ابن

Twitter: @ketab_n

البتول قد ركب البحر المحيط مرة في " نول لمطة " ، فأخرم به المركب، فوقع في مياه ضحلة. وضل البحريون ولم يعلموا حيث هم، حتى تركوا المركب الكبير، وأخذوا زاداً في القارب الصغير وصاروا يجرونه على الحشيش، وطوراً ينهضون بالمجاديف، ولم ينتهوا إلى البر إلا وكاد الزاد يفرغ ".

حين هجع وهجع الجميع.. من شدة المشي وإضمار الشر، رحلوا في رقدة سريعة وعميقة، بقي عمر مفتوح العينين. استيقظوا مع إطلالة الفجر، ليجد عمر نفسه مكبلاً، تحوطه وجوه ومّاضة بالافتراس، غير الوجوه التي نام عليها البارحة.

أيبدل النهار وجوه الليل !

هنا أدرك ماذا يعني أن يكون وحيداً. لا يملك أدنى قدرة على أن يقيس بذراعه فظاظة الاستعباد.عمر لم يتوغل عميقاً في الغابة، كما يليق برجالها.

..... نكستي بدأت، لا حائط استند عليه، أفرد ذاتي العاجة برماد كثيف، أحترق بضراوة، علوت خضرة بلا معنى، خضرة كان يصحو في عشبها حلم أهلي ولم أظفر بغير الرماد، لا أرى الآتي إلا غامقاً أصابعه خشنة، أسلمت حنطة الوقت لمناور غير عابئ بالنذالات، زججت سمرتي في طوق الغربة وامتلأت بالتشويه، خيبتي بكل عتمة هذا الفجر وغبشه، كيف أوزع رحيق الشمس في روحي لتستعيد ما تعتق من إشراق، الأصفاد خانت الإشراق، أنا أيضا خنت، اقتلعت نفسي من نفسي ، لأبقى تعساً أذوي وأذوي حتى أكتهل ويصير العمر رمادا لا أقوى حتى على نفخه ونصير لهاة في حلوق الطغاة ، أمضي حاملا قشور جراحي القديمة والآتية ، وعمرات القلب ملأى

Twitter: @ketab_n

بالشآليل، ليس هناك جدار أخير نتطلع إليه عدا نتف من أحلام تجعلنا أحياء، تنفتح أكفنا ليتطاير منها رمادنا الهاطل من سقوف لم تعد تظللنا، ونتطاير خلفاً وسلفاً نعيد كآبة ما ظننا أنه حياة ملأناها موبقات، واستغاثات بين يدي الله يجدلها سراً غامضاً يعرف كنهه السحرة الذين يخاتلون بهجتنا الطفلة، ولا يكترثون بمصائرنا... لن يمسح تعبك إلا يدك، وإذا غنت كلمة، لن تغني إلا روحك، ولن يوصلها إلا حنجرتك أنت.....

تصاعد الغبار فخسر مرتين، مرة لأنه لم ير، ومرة لأنه رأى بعد أن غامت السماء. لاحت إطلالات الشروق..

انهض يا عمر من شرودك وانفخ في الرماد علّك تجتاح حزنك وتجلو ما بقي من حصوات في روحك.

انضم عمر بعد فكاكه من غيبوبة يقظة حادة، إلى سلسلة الحبال التي قيد فيها الغلمان، وأذن للجمال ببدء السحب للكتل البشرية المكممة الأفواه،السائرة مكبلة فوق رمال موغلة بين جبال لا تخلو كثيراً من الأشواك والعقارب والزنابير والقسوة.

لقد بعثروا الحلم الذي حمله عمر من نخل البستان.. انتزعوه من بكارة صرخة ميمونة، وهرج حمزة، ونورانية درس الحجرة.

اجتثوا روحه من عصارٍ، فواحة بالعطرة، والحبق، والدوش، وخضرة النعناع تعبق بالمكان وقت أن تتدلى عليها عرائش الفاغية، لتحيل كائناته إلى أرواح لدنة، لا تملك إلا أن تصفو، وورد اقترب من الحمرة، يطفو بخجل وهو يخالط ما فاز به من شاي.

Twitter: @ketab_n

حولوه إلى أنقاض، والأسر وحده الأكثر شبهاً بالموت. يموت الإنسان من الداخل حينما يستعبده بشر مثله، ويجعل غبطته جذاذاً.

يمضي النهار، تستعر الشمس. يبحث عمر عن مناور، يحاول تمييز صوته.. ولكن لا أثر : (يبدو أن النذل الملعون قبض الثمن وفر). يحدث نفسه. ويمر طيف ميمونة وأمها وخالتها.. أمانات من اللحم تركها للمجهول، وأخوه غائب. يتراكم القهر في عقله وقلبه، والشمس تلسع عينيه بما ملأت العصابة من عرق، وذرات رمل شريرة . يتفاقم شعور الذل والوحدة في نفسه. يتحرق اشتياقاً للتوحد مع الرمل والشوك والحجارة. والوحدة إن لم تحولك إلى مُتَحدٍ مع ما حولك تجعلك هشاً، يأكل الضعف قلبك، ويتركك تتيه حتى تَمّحي، ولا يبقى إلا اسمك واهناً لا يحفل به أحد. من يبع يبعه الوقت.

عبروا رمالاً مشوية فضحت لحم أرجلهم وما اختزنت من ابنوس، وأكلت عمر ندماً مع أعراب غير معنيين بندمه إطلاقا، مدربين على تهريب العبيد بين سواحل وأطراف ينبع وجدة والقنفذة والحديدة والمخا، بارعين في تجارة العاج الأسود. وعندما جف ماء جسده، يبست شفتاه قبل حلقه، خر صعقاً.

في منطقة الوهاد الباطشة بالماء، بقر أحد الجمالة بطن جمل هرم، ثقب كرشه فاستقت القافلة منه وواصلوا المسير.

بينما الشمس تتعامد مع الأفق، وسموم المفازات يزداد ضراوة، تعالى النحيب. معزوفة من بكاء مهين، ضاع صداها في تجاويف الريح والبلاقع، ورددته الجبال كأنه نعيق غربان ملعونة.

وهاد من العُشر، تنبسط أمامهم كأنها تنتظرهم من آلاف السنين، أخذت أخفاف الجمال تسيخ، وظلالهم تتكسر على آخر نسج سأمته الشمس.

Twitter: @ketab_n

٤ . بنت الحجرة

بينا عمي منشغل بحديثه مع بعض الرجال، بالقرب من عريشة لشجرٍ خضرته لا تقاوم، ترضخ ببلاهة للفجيعة وتسكن. كانت أمي تجلس تحت نخلة يعلوها نخلي لم تره، وهو غائب في الخوص. اشتد عليها الطلق فهزت إليها بجذع النخلة، ليهوي النخلي المختبئ من نفور الناس، ساقطاً على عمي القادم ركضاً استجابة لصرخات أمي.

سمعها غابة تنادي فرسانها.. أشجارها.. عيونها، لتنضح عليها هطلاً يوقف التحامي بالسرة.

أرغب في أن يقطع سري أبي، وأبي راح يقدّس حجته.. يارب الأقداس قدّس روحه بعد حجته، وأعده مكللاً بالتين والعنب والبركات، كما عاد ابن الخطاب بعد أن ألقى عهدته على المفتاح. أنا مفتاح أبى هنا، أحمل في روحي إيقاعات الغابة، في ضلعي الأيمن خضرة ممنوحة لي من جدي اسكيا، قطفها من بساتينه التي أوقفها هنا، يوم كان الناس بالناس والكل بالله!.

جاء بعده قايتباي، انشأ التكايا، و أهدى الحرمين مصابيح، ونثر في الطرقات قمحاً، ولحماً دون أن يمّن على أحد.

جدي منسي أيضا مر من هنا، وترك شيئاً منا. شئ طمره الغبار، وما قدرت عليه حجارة الأيام والتاريخ.

Twitter: @ketab_n

سأفتك بالسرة، وأنزل، معي رغبة للاختلاف، ونزع الدجل من صحائف التاريخ.

تاريخ يفرضه حملة السيوف ومتعاطي حبر تزييف الدين، ناتفو ريش الطيور، وشاربو الذهب الأسود في قحاف الجماجم، فينتفخون ويكنزون الذهب والفضة. يعبرون نحو الرقاب على قنطرة الدين، " يحتسون الثريد ويمتطون العبيد "، ويتكاثرون بمعزل عن الأكواخ والأعشاش وذلك السجاد العشبي الذي يلثم الأفق سراباً، وقت أن يظمأ الماشون في الأسواق جوعاً ورغبة في القديد والسويق.

سويقاً أطعموا أمي، ودفعوه بحليب ناقة عجفاء، ففاضت زبداً كأنها بحر عفن، فما خرجتُ، ولا رحمت أمي، ولاعاد أبي كحربة استوائية، تفقأ عين الشمس وتتركها كبدة نيئة، يلوكها الطغاة والمستبدين وأباطرة العشائر الملحية.

تحلق البدو حول أمي، وقد جردوها من ملابسها وغطوها بسعف النخل. تقمص النخلي خوصته وماع، والدراويش اقبلوا من الكاتبية يتلون يس، وهي تغالب أنينها، تباعد ما بين رجليها ألماً، وأسمعها تلعنني، وأنا العن المتحلقين حولي من بدو نبذوا الدين وأشقاهم الفضول، والشغب، والسغب، والزغب، والاشتهاء.

(وادعة الزنكلية) شقت أحواش النخاولة برداء أبيض طويل، وحدي أبصرته يتدلى من سحابة جهوم، نثت ثلجاً أبردني وحدي.

الزنكلية فرقت الجمع بجريد النخل، وقال الشهود أنها نهضت من مصحف فاطمة، وكانت قد اشتهرت برؤية الحسين كلما احتضنت سماء المدينة غيمة جاءت من شمال. ركب تتقدمه هوادج حرائر فاطميات. في

Twitter: @ketab_n

صبيحة ثامنة، لشهر تلفعه " الأحاريم ". كانت الشمس قد دنفت، وأرخى الظل على جذوع شجيرات الصحراء رشاشاً من سحر، وتراءت كثبان البوادي، ساكنة، تغرق في عبابها الأنفس. أراق الصباح على الكثبان، دمه الوردي. وزينب تسمع لغطاً :

يا أختنا الحسوراء أين سكينة

نادي الحمى فلقد بلغت الموعدا

ولكني لم أتهيأ تماماً لموعدي. جلستْ الزنكلية إزاء أمي، باعدتْ رجليها، ربطتْ يسراها بالنخلة، وانتزعت قماطاً من سحاب امتد عبر ثوبها. أبصرتها تحدق عبر شق أمي وتهمس لإبهامي " أن اظهري وإلا أشعلت الغابة حرائق لن يطفئها فرات العراق، أو صياح النجف، العاشوري، ودفعتُ بكل أهل الغابة عبيداً لبدو الجزيرة وأشراف مكة ".

نهرتني الزنكلية، وأنا أخرج لها لساني رطباً بماء المشيمة، وحول عيوني هالات من فزع مستطير، ورواق القلب معبأ بالانتظار.

انتظروا ريثما بدلتُ موضعي بحركة غيمية، حتّ جفافٌ شئ أمي، منحتُ لساني لزوجة لترطيب المكان، فأندفع ماء تعقبته. ناولتها رأسي فإذا رائحة كفيها أزهار حبقٍ، ومسحوق لبنٍ مجفف. ضمتني، حنكتني، صبت في أذني صرخة بلال بكل ما شغلت ْمن نداوة . أسدلتني فأبتلعتُ لساني، والبدو قد لطخهم الليل، بينما ابتسامة عمي تغطي كل أحواش النخاولة.

نامت أمي كما لم تنم من قبل، وأنا بهدي الغريزة أمص حلمتها، فيجرحني اليباس. أبكي فتنشلني الزنكلية وتقول لعمي:

- بكرة تعال خذها وهات معك ناب الذيب.

Twitter: @ketab_n

تمضي وحبل السرة يعانق الثوب الأبيض المتدلي من سحابة نفت جهامتها وتهزج :

" نونو يانونو
ياحنون ياحنون
جاهل صغير
ياحنون ياحنون
قد الجرادة
ياحنون ياحنون
أمه تحبه
ياحنون يا حنون
وأبوه يكبه
ياحنون ياحنون "

شالت اللحظة مزماراً، وأبي غاب، وما آب حتى يكبني على وجهي، يحنكني ويطلق أذاناً في أذني اليمنى، وعندما يهم بالإقامة، يفجع بأني بلا يسرى، وأنها التصقت بجدار رحم أمي، وغدت تتضخم حتى قاربت أن تكون حملاً. والزنكلية تمعن في خلط الغناء بالقسوة وتخبر أمي :

- بنيتك كسيحة، لن تمشي.

ليل بقسمات الأحراش يلتف حول أحزان أمي ويغفو فوق ضنكها. ندّ من وريدها فجر خاشع، ذلل لها العارض لتسير نحو نجمة ليست شاحبة. نزعت موتها قشرة قشرة، قذفت به إلى جوار فضلات المخاض،

Twitter: @ketab_n

وأبى غائب، يتفاقم حزنها ، فتصلي ركعتي الفجر وترفع كفيها نحو فالق الإصباح وقلبها يبتهل.

أبصرها عمي وهو عائد خالياً من ناب الذئب، فزعق :

- تصلين ؟!

تساقطت عند قدميه، كساها شحوب من يقترب من الموت والموت لا يريده. فشرع يتلو عليها يس حتى انقطع الشحوب. اقترب منها اقتراب أشعة صبح فلوت، ففاحت منها رائحة أبى وعبق الغابة.

طفق يتأملها طويلاً كمن يجهز حربة لمخاتلة ذئب أو وغد.

انطلق مسرعاً نحو قربة الحليب، ليجدها بلون غائطي الذي شكل خطاً فارقاً يصل البستان بحوش الزنكلية.

سحب أمي من صفحة الشمس، جاعلاً أوراق شجرٍ باهتٍ سماءً لها ، وأنطلق ثانية متتبعاً غائطي.

لحظة هجمته على حوش الزنكلية، فاجأها وقد عجنت حنطة عتيقة، أدارت الأقراص، ولم تجد تنوراً، فجلست تذيب حبلي في الشمس. صدته :

- أخرج واقتعد طرف البستان حتى لاأذيبك.

ارتعد عمي ووقف حجراً.

نهرته :

- لا تقف هكذا ، فيداهمك الهواء السخين، فيجمد حلم الغابة في حلقك قبل رئتيك.

سألها بيديه : ماذا يفعل ؟

- لا تنطق، أخرج، وإن استطعت تعرى، إلا من نصفك السفلي، ثم تخيّر وقتاً تطمئن فيه لتعد أنت وأمها ، وإلا كن مع مناور !

Twitter: @ketab_n

أشرقت بسمة في وجهي، صوبتها نحوه، فأختفى بحنان.

حنكتني الزنكلية، حلقت شعري، وروت لي مشاهد كر بلاء، حتى عاد عمي بصحبة أمي في اللحظة التي سافر فيها الرأس لمصر أو تحول ناعورة في الشام. دفن نواح زينب في تراب الغرقد، وحلقت روحه في أجواء ارض السواد، حيث خرج علي بن محمد الزنجي العلوي في السادس والعشرين من رمضان بعد قرنين من هجرة جدها لطابة. واقفا على أطراف السواد، فقيرا حاله تشبه السبخة التي فار منها هو وجماعته ملحاً، يحرق الجلد، والعيون، ويهز العروش الموشاة بالقصب، والذهب، والسندس، ليس له أي نصيب من جاه، أو غنى، مجردا من الإنتماء، فاقدا العزوة، معوزا يقاسي ما قاساه أمثاله ممن يعيشون على هامش الحياة. يزداد نقمة لرؤيته قصورا تفترس الشاطئ، وتملأ الصحاري بالخوف والوحشة حين يتكدس فيها الاخويا والعبيد الجدد. يشهد بروحه وناسه بذخ الخلفاء والأمراء والأثرياء وحاشية الخليفة. يبصر تفسخ الحياة وانحطاط الناس ونفاقهم، وتغلب العِرق والمال. ينظم الشعر ويغني ساخرا من " الكباريّه " :

(في خط القديرة

يا ناس مرة

شفت ريفيرا بدون نمرة

لا هي خصوصي ولا اجرة

.....

.....

في الهدا محبوبي غاب

Twitter: @ketab_n

.....).

يترك الخضرة تنتهب في أعالي الهدا، يرحل من سامراء إلى دلمون، تحط روحه في المسفلة، متأثراً بما شهد وسمع في القصور، وما شاهد من لحم كثير يؤكل ويمتطى، حين كان سائقا وخبايا القصر مترعة بالخول، فيهمُّ بأن يفعل شيئا، ولا يملك إلا أن يغني، منتظرا فرصة مواتية تكون ريحا تقلب التراب تبرا لا يتحامل ولا يتحيز لألوان الناس الذين خلقوا ليتعارفوا لا ليتنابذوا، قدر ما ينتمي لأرواحهم، وما يبرق فيها من شعل، تفيض وتفيض، وتمتلئ دعاء، وابتهالا إلى أبي الخيمة الزرقاء، كي يعجّل في خراب الأرض، موقناً بأن الإنسانية شئ لا يكتسب ولا يمكن تعلمه بإتقان. وحين يقف في المسيال، يحتوي ماء ينهمر من أعلى الحجون، ويرى آخر الوادي خبزة له يأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف، فاض الوادي وامتلأ حنطة وعسلا وطيورا تستعصي على النهابين الفارين من صهد اليمامة. ثم يدرك ألاّ صفاء في الصفا، ويصيخ سمعه لجبال من سبع بناتٍ تلمُ " جياد " وتخبئ الدابة ليومٍ كريهٍ، يعيد الصفا لأهل الصفا. ثم يسجد ويرى بين آخر الوادي وأوله، اسمه يتطاير وحيدا، طاهراً "كتلوج " يقف في الهواء.. يتخشب حينا خلف القضبان، ويرحل خلفه (الغطْ غُطْ)، ودَرَكُ العمدة. ويخاتلهم حينا آخر، لائذاً بالغناء (يقولو حارة المسفلة لها عمدة.. أنا جيت أخرج تابعية أجيب ورقة من العمدة.. وأنا إن جيت عايز كفيل أجيب ورقة من العمدة..).

يضيق من القيود، فيزفر ممعناً في سخريته (... أنا إن غلّبني الحبيب لاشتكيه للـــــــــعمدة).

Twitter: @ketab_n

ثم لا يكترث فيسمي (..أنا سألت اسم العمدة..

قالوا بو رزيزة..

قلت المسفلة حارة ممتازة..

وفيها عُزَيْزة).

يوسعونه نبذاً وتقرفاً وتعقباً، فيختبئي في بساتين الطائف، إلى جوار صخرة عالية في الرّدفْ، خلف رمانٍ ناهد وقانٍ، نازلاً من حزنه وغمه وفرحه المطارد، يحمل صوته للبلابل والنغاري، يعيرها عذوبته ثم ينقضُّ مثقلا بشوك البرشومي الذي أعاره شقاءه، محموماً بلذعة حماطة معتقة، و" الحلوس " يتصايحون مع " الرِمَمْ " :

(ياكلك..

شوك البرشومي..

ياكلك)

يريد غناءً فيه حراك " الناتال " الذين تضخمت أعدادهم واشتغلوا في جميع المهن، لا يقرمطون في سيرهم إذا مشوا نحو جنوب الغابة نازلين من كثرة الهنود، متماسين مع الملح العميق. بينما صحبة طاهر يدركون حين يناديهم الأعراب (فقي زنبيل)، بأن الفقي فقيه أوغل في الدين برفق، فوجد مسافة تملؤها الوحشة، والأرض فارقها الدين ونفحاته السماوية التي ساوت وقربت وأطفأت تمايز الأعراق.

يعلمه تعب سافر، وزمن بالسواد، أنه ما لم يعش في مجتمع انساني لا يمكن أن تنمو معه الإنسانية. يريد أن يتوحش، فالمجتمعات القاسية تقود المرء للتوحش، ولكنه يحشو جوفه بالأناشيد والسخرية. بالسخرية يتقهقر توحش الروح فترق وتعود البساتين تخضّر.. يتآخى

Twitter: @ketab_n

التفاح مع التوت، وربما سكنت بذورا في الرمان، وأوقفت حسن النجار عن الدجل بصوته المتسرب من كهف اعماقه في الغابة. والزنكلية تمعن تحديقا في باحات عيني، اخترقت حجبها ورأت الدم الطافح في صهيل خيل عرجاء، راعت وحدقت، تراني ليلية قاتمة. تعاود التحديق فترى نفسها رملية مخضّرة.. تقشعر وتغدو دائرة من رهج، وتمتد يداها كناعورة حموية تدوّرها النار.

ناولتني لعمي، فترنحت أمي وعيني تطيح بعينها، ثم همست بصوت واهن :

- ميمونة.

يرد عمي

- نعم ميمونة.

فكنت الاسم الذي قدّ في الغربة من وصية أبي. كنت الاسم الذي اغضب وادعة الزنكلية، لأنها انتزعتني بسكّينة، وخلعتْ عليّ سَكينة، إسماً يرف في حكاياها ويسكن روحها. جزعت لغضبها، فسكنتُ وكنتُ سكّينة.

تذهب بي أمي للروضة الشريفة، تبتهل إلى الله أن يعيد زوجها. تنفض عنها أربعينها، فتسلمني لوادعة. زينوا رأسي بكوفية مقصبة، تتدلى منها الجنيهات، فكنت " بنت الحجرة". غسلوني بالسمسم، زيتاً أعاد كل الوحمات التي قشرتها الزنكلية بأظافرها (البنت هادي لازم تنقعوها في موية ورد وكادي، وشوية زعفران)، ثم حملوني إلى العقيق، والعاقول، وفي قربان أبصرت الماء ينساب إليّ بجلال، يذوب فيه الورد وينضحوني بقطرات يسكبه مَرَشٌ كأنه يحبني ويعاند الزنكلية حين

Twitter: @ketab_n

يفضح كل الوحمات، ومن جوار القبة الطاهرة يرتفع نداء أخضر مبارك، تتندى له اذناي . فتعود بي أمي للبيت. وتنتحب حين تجد عمي قد أعد العدة.

- إلى الحج.

ردّ لما سألته أمي عن وجهته.

رفضت، وبكت صائحة :

- مكة بعيدة.. أنا أنتظر عيسى، سيعود قبل أن تصل أنت مكة.

يتجاهلها ويستمر في تجميع أشيائه.

- القدس أقرب، وفيها بركة، الماشي منها تدفعه الملائكة.

يضحك عمي معلقاً :

- ولكننا إلى مكة سنمتطي الجمال.

تصر أمي على أن القدس أقرب، وتصر على انتظار زوجها، تبكي وتصرخ في عمي :

- نحن أمانة لديك، لماذا حملت الأمانة.. لمن تتركنا ؟

يصمت، ويتعنت، ويسري لشأنه دون أن يسلمني التاريخ.

وعندما ترميني أمي لخالتي وتندفع ملاحقةً عمي. ينتصب بقتامة البن والإرتحال، واقفاً مع احد الرجال البدو في البستان وحولهم صبية سود، تحاول أن تقترب منهم ولكنه ينهرها، ويختفي معهم سريعاً.

تتناثر صياحاً و تنكفئ منتحبة، تخرج إليها الزنكلية تلمها إلى صدرها، وأذان المغرب يرتفع من الحرم مختلطاً بنحيب نسوة حول قبر فاطمة.

Twitter: @ketab_n

٥ . تهاطل صهبة

هاهو يرسف في الأغلال. سوق البقيلة يضيق في عينيه. مكوم كالبهيمة. ضوء بعيد يركض ضالاً داخله. أغمض عينيه، يصغي لداخله بعمق مشوب بأسى لا حد له **(الإصغاء لداخلك قد يعنيك على تجاوز قسوة هذه اللحظة، وأنت تعرض كالبهيمة، ليس إلا داخلك.. اصغ.. اصغ لداخلك التعس علك ترى طريقك وتحدد هدفك. أخرج كل ما احتقن من أسئلة، واحتمالات، وارسم حيلتك. ترى هل بيدك حيلة ؟).**

يكبر حديثه الداخلي متقلباً ما بين التعاسة وأجنحة حلم يلوح من بعيد كنجمة شاردة من مجرتها، ويتوه تفكيره. المكروب لا يسيطر على حديث النفس، ويرهقه ضلال ضوء شحيح داخله. **(اتحد مع همك، الوحدة إن لم تحولك إلى متحد، تجعلك هشاً يأكل الضعف قلبك ويتركك جلدة لطبول، لا تخرج إلا صوتاً مبحوحاً. حتى تنمحي، ولا يبقى إلا اسمك واهناً لا يحفل به أحد. حتى سلالتك يمرون عليه كما يعبرون رملاً مشوية).**

يزداد الرمل تحت قدميه ضراوة كأنه ماء يغلي، أو حبات جمر تاهت من ظعن قديم، فتفور كل أعضائه ويكاد يفقد وعيه. دفق هائل من الحزن يثور داخله، يحس أن الدنيا ستخر عليه حين يشتعل المزاد. يقترب

Twitter: @ketab_n

منه باناخه باشا شهبندر التجار، يفحص خصيتيه ويمس ما بينهما، يربت على كتفيه ويبتسم. يمثل أبو الحسن البغدادي شاهراً وصاياه العشر. يستعيد مع الباشا حكايا الشراء في المواسم، حيث يجدل النخاسون حيلهم "... سمروات كمدات، بعن بصفراوات مذهبات، وبطين مجدول الحشا ".

ينتخي أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي بالباشا على طرف ويدجل : (كم صفروا بياض القروح في العيون، ودسوا البرص والبهق في الجلود، وسمنوا الوجوه المقمقمة، وبيضوا الوجوه المسمرة، ودملجوا السوق المعرقة، وأذهبوا آثار الجدري والوشم والنمش والحكة).

يحك الباشا إليته، يوقف ابتسامته، يعود لعمر شابكاً يديه خلف ظهره مشكلاً نصف دائرة من غبار. يلحق به البغدادي مكملاً الدائرة : (اللون لا يكون مائلاً لصفرة تدل على ضعف الكبد وغلبة الصفراء. وتعرف يا مولانا أن السواد يدل على ضعف الطحال).

بدأ الباشا يتأفف (إذن ماذا) ؟

(يا مولانا إن كان أسمر، فلتكن سمرته سمرة صافية).

صافية وصغيرة تناهت من زقاق قريب أصوات بريئة :

(حادي بادي..

سيدي محمد البغدادي..

شالو كلو..

حطه في هادي).

يسترد الباشا بسمته مفكرا في الاقتراع وحادي بادي ، وسفينة تصل للتو من الغابة. ترسو وتساحل حزنه، تسافر عينا عمر صوبها.

Twitter: @ketab_n

ينزل ركابها ملفعين بملابس الإحرام. يساقون كالخراف إلى المزاد. يفيض الدمع في عينيه، ويلامس حنقه الحزين سقف السماء، فيما تكبر ابتسامة الباشا الذي عاود حك مؤخرته بقوة، وتكبر وصايا البغدادي وهو يشهرها متحولاً بها من الهمس إلى الصياح بصوتٍ يلقي حجارة : (خمسة للعين، ألا تكون مضطربة الحركة، لأن ذلك من علامات الوسوسة، وألا يكون بلونها زرقة في السواد لأنها من علامات الماء، ولا يكون بياضها كدراً أو أصفر، أو فيه عروق، وألا يكون شعر الأجفان منتثراً ولا متقلباً).

(حين أركض، سيركض الضوء داخلي، ساق لا تركض يتعفن الضوء داخل حاملها. سأمد ساقي كما لم أمدها منذ سنوات سفحتها ركضاً في الغابة، سأسد بها حلق هذا البغدادي، سأكون الحادي والبادي والصادي، ويبقي قلبي النادي).

لم يكف أبداً عن محاورة روحه. علا الحوار مع علو ضجيج وصايا البغدادي الذي يتقافز بين الأنفس المسروقة كقرد مدرب. راح يصم أذنيه بالإنصات لحديثه الداخلي. بدأ يملؤه إحساس هائل بأن الإصغاء للذات يغني عن الاحتراق والتألم، ويقي من الانتباه لصفعة المستبد. ليس من ألم حقيقي إن تجاهلناه. **(إن أصغيت لألمك تتوجع، اصغ لداخلك بمعزل عن ألمك يصفو تفكيرك. لكن كيف أحقق هذا والبغدادي لم يسكت ثانية؛ قل شيئاً يا عمر.. أفهمهم أنك ولدت حراً، هيا افتح فمك).**

يمد يده الباشا ليفتح فمه، وفم البغدادي مفتوح على : (شئ واحد يختص باللثة يا مولانا، ألا تكون فيها قروح تبث البخر، فيكون العفن).

Twitter: @ketab_n

وعـود الأراك جف في يد عـمـر، منذ أن حطهـا بين يدي مناور.. أصبحت ناشفة، يعاديها الخصب.

تراجع الباشا مطمئناً، بعد أن أتم التقليب. راق له عمر، فصاح في أعوانه لإتمام شرائه. ومن ركنٍ بعيدٍ في أقصى السوق يفرك محمد أفندي يديه، ويحار، كيف يقبض على هؤلاء البدو الذين اسروا المحرمين ؟ من جلبهم ؟ كيف يمكن لرجال الجندرمة التوغل في الصحراء لمطاردة المستفدين ؟

كان يعي جيداً أن رجاله يخشون التوغل في الصحراء. لا يفهم لغة الصحراء إلا من دفنت سرته بين رمالها، ونبتت أظلافه تحت وهج شمسها القاسية.

يستمر مفكراً : كيف يقتحم عليهم أكواخهم المنسوجة من الشعر؟. وهل تواطأ أهالي سواكن معهم، والتقت مصالحهم مع المشايخ، ليشحنوا بشراً مع الخراف ؟. ماذا سيفعل أمام منع هذه التجارة، في وقت يتصدى للمنع التنابلة الذين يمرون عبر الدهور يمسحون بلاطات السلاطين، يبررون ويفتون بما يوافق هوى مولاي ؟! .

ويتبدد حلم أخير أمام عمر الذي أخذه رجال الشهبندر ليتعرف على سوق الحبابة حين تغرقه حبوب الشعير والحنطة وبهارات الهند وبن اليمن.

و سوق البرادعية، الحمير، والبغال، واقفة أمام الباشوات ليركبوها مبردّعة مسروجة. وسوق البنط المليء بخيرات البحر.

يغلي رأسه ويتأكد انضمامه للقطيع.. " فاقد حرية مستجد " .

في قلبه طير جريح، ينفث ناراً. وحقل من ندم قانٍ يخالط دمه

Twitter: @ketab_n

ليوجع ما سيأتيه من أيام.. يتقن فيها كلمة (سيدي).. تتسرب كمياه حارة بين أزقة حارات لا تشبه شساعة ما أخضّر من فتنة الغابة بقمرها الذي يضاجع ألق صفحة النهر حين يلثمها المساء فرحاً، معطراً بنسائم تهربها أجنحة تتكسر لفراشات مشبعة بالألوان. وليلها المصقول بصفو نفسٍ، وقناعة بشر، وشرود يتفتت على شحوب الرواشين. والباشا لا يفتأ يحك ويحك حتى يلتذ.

* * *

في تلك الحارات الضيقة، التي لا يحدها إلا البحر. يجلس عمر، على مقربة من قصبة الهنود. تميزه سحنته، وعود أراك لا يفارقه إلا مرات نادرة، يعمل في فمه. يمر عبد الخير، طويل كالليل، غامق وحزين، تفوح من عينيه مرارة، ينطق بها، ووحده عمر يشمها.

منذ أن فقد حريته، زادت حواسه كفاءة، خاصة أنفه وسمعه. وبصره يدرك عبد الخير طوال اليوم.. ملموماً تحت شجرة عتيقة، نبتت في زمن المماليك، إلى ركن قصي داخل (المظلوم). يبني حياته، ويتقاسم دنياه مع دجاجات هرمات، وهوام، وحشرات طائرة وزاحفة وساكنة في رأسه، وعلى تغضنات وجهه الأسمر، ذات الطبقات المجعدة التي اندست بين طياتها حكايات وتاريخ لا نهاية له.

(تحسين جابر عبد الخير)، يحفظ اسمه جيداً، ويذكر أن سنواته التي سكبها في دروب الحياة حتى ألقت به في هذه الكومة من الشجر، والحجر، والتراب، مليئة بأناشيد الفرار، والجنون، والرفض، والحداء، واجتثاث الكسرات من جوف الريح .

لاحظ عمر أنه يخفي عندما يتحدث أشياء كثيرة، مثلما انتبه لقلقٍ

Twitter: @ketab_n

يتألق في عينيه الغائرتين. قلق تتنازعه شخصيات، وارتحالات، وتوتر عابر. وحين يهدأ فيما يشبه الاطمئنان لإنصاته، يحدثه عن تاريخه بعبارات يناقض بعضها بعضاً، ولكنه يغويه بالسفر لأعماقه.

قال له مرة (ولدت تحت جبل رضوى، وقت أن كانت مياه البحر تتقيأ جبالاً من دم ودخان. وحين شببت، أخبروني أن تلك الجبال منحتني لونها، والسماء خبأت صوت الرعد في حلقي).

كان عندما يغني تنتشر في باحات المظلوم نغمات عذبة، من كسراتٍ يؤكد أنه جلبها من شوك الوادي، وحرارته، وفم الريح. وعندما يفرغ من تشييد الكسرات بصوته، يحس كل أهل الحارة أن الرعد مر للتو، وخلّف سراً بمكانٍ لا يعرفه إلا تحسين، فيظلون يطلبونه الغناء أملاً في الوقوع على السر .

ومر موكب السلطان وهما تحت الشجرة يتقصفان حكيا، فأخبره: (.. لقد عملت مع الاخويا، وارتحلتُ عبر الساحل، حتى طفتُ الجزيرة ناسياً أهلي وناسي. ثم قذفتْ بي الأيام هنا).

تجاهله عمر، ومشى بهدوء خلف الموكب حتى لم تعد عيناه قادرتان على ملاحقته. فوقف ساهماً، يتضاعف شعوره بأنه سقيم، ويحتقن حلقه بالغل.

بطرفٍ خفي من أصابعه المتخشبة، يستدعيه تحسين، ويصب في أذنيه مفردات أغنية الحرية، يرسم بسرعة معالم درب الخلاص: (إذا طلعت قدام هناك الشام، ومن ورا حدّك اليمن، تغزّر دوغري تاصل جماعتك التكارين في حارة برا.. تلقاهم شغالين على المَدَمْ والنقرزان طول النهار).

Twitter: @ketab_n

يضحك، ولا يقوى بدنه على أداء رقصة المزمار التي حاول تقليدها، يهبط على الأرض كثور عظيم أردته طلقة غادرة، ثم يكمل ماضغاً ضحكته : (هيا قوم لا تصير زيي، يضيع حقك ويقولون عنك عبد.. ترى الناس ما يعطونك حريتك .. حريتك أنت تجيبها).

يقوم دون أن تتضح معالم الدرب، ولكنه يوقن انه الخلاص. بطيئا بطيئا يمشي، يعبر جاريات شركسياتٍ قُدّ بياضهن من رخام، ينتمين لفصيلة أبي رنادة، يغنين...

" والعبد سعيد.. جرّ عليّ السكينة.. ملعون السيد.. جرّ عليّ السكينة ".

يبطئ قليلا، وتتحرك أشياء غامضة بين فخذيه، ثم يلج مسافة عامرة بالحضارم واليمنيين وإيطاليين ويونانيين يتراطنون بما لا يفهم.

ثم يبصر فجأة نافذة علوية في بيت بغشن. يا لحظه العاثر.. اتجه شمالا ولم يختر الجنوب تجاه الشرق إذ ينبذه الملح، وحيث مكمن الخلاص.

في حارة برا أحرار أشداء من غرب الغابة، تأبّوا على الانسلاخ من حريتهم، قنعوا بحمل الزنابيل، واللوذ بالأعشاش، وأكواخ الصفيح، مقابل أن يستمروا سامقين بآدميتهم، أحرارا للسطوع.

من نافذة بارد حديدها، ولونها قاتم، تطل على كل الأزقة والباحات، تصيح بدرية الست الكبيرة لبيت باناخه، بصوت كأنه مسامير صدئة :

(يا واد يا بعيد.. فين رايح يا سرسري) ؟..

تطبق الدنيا بظلاماتها على عينيه، يركض والهلع يتبعه كظله.

Twitter: @ketab_n

يتزيا بسواد امرأة، في بعض الأماكن الاختباء في جسد الأنثى يُسهِّل تخطي الجمر. يمتلئ تحليقا ليقفز كالضاري من فوق السور المحاذي تماما بيت بغشن، بعد أن راوغ عيني الست الكبيرة، واختبأ تحت مشربيات رمادية لبيت الشرفتلي، بعد أن توغل عميقاً في شكل أنثى.

وعندما غامت الدنيا وقبض على الهلع، وخبّأه تحت إبطيه، تناهى اليه رعد تحسين مدججاً بالوعد :

(هرج القفا مبغاه
والوشوشة ما تناسبني
إما تعدّل وخلك زين
ولاّ من الصبح فارقني).

وقف كقوس أرخاه مطر فلم يقو على إرسال السهم، أزمع على قفز السور إن أغلقوا البوابة الكبيرة التي تنفتح على بحيرة الأربعين.

من أين تبدأ الأشياء، ولماذا تنتهي هكذا.. دون أن ترأف بأحلامنا حتى وان دقت وصغرت !!

ليس أمامه خيارات، لديه قدرة على انتقاء أسهلها وأأمنها. في لحظات الخوف إذ تمتزج بالألم تتعدد الخيارات.. تنفتح واسعة، ولكنها تضيق كلها، وتصبح خيارا واحدا ينظمها التشتت وتبددها الحيرة. إن بقي خياران فكلاهما سئ، إما البقاء للصبح، فيفضحه نور النهار الذي ينبعث باهراً من لجة البحر، أو العودة إلى حيث ألقت أم عامر . (ليس من خيار إلا بين أمرين سيئين). صار يمشي بخفر وحزنه مرمر.

تراءت امامه خيالات الباناخة بصوته البحري المتشقق ملحا. لم يرهبه. هجسَ : (بأن الأسياد ليسوا عظماء في نظر من يستعبدون).

Twitter: @ketab_n

ألقى برعد تحسين تحت قدميه اللتين استحالتا الى أجنحة، وقفز السور قبل أن يأتي الغزاة فيهدمونه .

على أطراف البحيرة التي قطف منها أهل جدة أربعين حورية فعرفت ببحيرة الأربعين، ينزوي محتشداً بحلمه، متوثباً كضبع، تناهت إلى مسمعيه تأوهات العشاق، وهمس السمّار، وغلمان بألق القمر متناثرون كاللؤلؤ الخام، وأشواق تعلو مخالطة اصطخاب البحر وأوبته. يستعيد شركسيات كنّ يغنيّن لتوهن، و ألهبن تلك الأشياء الغامضة.. حوقل، لم يكن معنيا بتلك اللوحات من الإضمامات ومكاشفات اللذة والتمعات الجسد . ما كان ممن تشاكى الهوى، للناس هوى وله بغية يبدد بها حيرة الاغتراب، وهو إن أخطأ التدبير فقد عبر السور، فر من عيني بدرية وسبابها، وغنج الشركسيات المحظيات، ولاذ بوشوشة تحسين (لا تصير زينا ويقولون عنك عبد).

بان أمامه فضاء يمتد بعيدا عن الأربعين. تماس مع العشاق، مشى محاذرا " سراج من نور الغيب بدا وعاد وجاوز السرج وساد ، ما أبصره أحد على التحقيق. ضوء المصباح علم الحقيقة وحرارته حقيقة الحقيقة والوصول اليه حق الحقيقة "، والحقيقة أن العشاق كانوا في ظلام، غارقين في بهجة الغلمان. ضوء القمر يتكسر على صفحة الماء، فينبلج لآلئ تضوي بضرواة العشق. وثم دانات وصهبة تتهاطل من الأطراف، متفايضة بالحنين على تخوم الرعشة الضاجة :

الى متى يا مرادي
يطول صدك وهجري
كم ذاب فيك فؤادي
فاقبل من الوجد عذري

Twitter: @ketab_n

يـا نـاس هـذا حـــــبـــــيـــــبي

مـن لامـنـي فـــــيـــــه يـنـدم

ولـيـس مـنـه نـصـــــيـــــبي

ســــوى ســـــلامـــــه ويـسـلـم

جسيسٌ هز سكون البحيرة، وشدا باللحن شاديه. وأرجل عمر تشدو لحن الفرار حتى غابت البحيرة عنه.

اهتاج الغلمان حين علا الشدو حاجبا صوت قدم تركض خلسة، مؤكدة الفارق بين ركض المطاريد وركض المجاريح الذين داخوا في لوعتهم :

فـدع جـذب الزمـام ولا تـسـقـهـا

فـقـائـد شـــوقـهـا لـلـحـي جـــاذب

فـــهـم طـربـاً كـــمـــا هـامـت وإلا

فـــانـك في طـريـق الحـب كـــاذب

آذنت الشبشرة بانتهاء النغم. وبدا الفضاء الممتد امامه يمتلئ بأعشاش البدو وخيامهم.. وأجساد افترشت الليل هامدة بجوار سمن، ووبر، وحزم من حطب، وبقع من جلود معز، وخراف.

وحين يشتبك الظلام بالخوف بالتوق للخلاص تفقد الأقدام شدوها.

داس على النائم بجوار بضاعته ليفز من نومه زاعقا:

- (الله يلعنك يا عبدة من وين طلعت.. جنية) ؟ !

تبسم، وتبسم المقهور سلوى. لجم صامتا، ليعاود النائم رحلته وخواطره التي تقرن الجن بالسواد " الخواطر علائق، وعلائق الخلائق لا تصل الحقائق ".

Twitter: @ketab_n

هدأ بعد أن هاج قلبه بالخفقان، وعاد لقدميه الشدو. تذكر أن هذا البدوي ينتظر الصباح حين تنفتح البوابة فيغدو بسمنه وحطبه لسوق البدو.

إذن لقد أضعت الدرب يا....،

" حارة برا " ليست فيما اتجهت، لقد سعت بك قدمك الى حتفك، ولك نفس ستتلف أو سترقى ".

اشتعلت في جوانحه نيران القلق، رأى أن يجمع ما تفرق في جسده من حلم ورغبات وهلع. استكان قليلا جالسا القرفصاء مطلقا تنهيدة بالغة الأسى أيقظت البدوي من جديد. حدّق فيه واطمأن أنه إنسي، تفسّح في فراشه ودعاه ليغفو جانبه. تضيق الأمكنة بالأبدان فتتسع للأرواح.

استطاب الدعوة، ومد قامته قابضا على ما تبقى من نزوع للخلاص. بعد برهة من إغماضه عينيه، شعر بيد البدوي تتحسس صدره بشهوة عجيبة، العباءة أيقظت ما اكتظ في جسده من حرمان، ولكنه بحركته الغادرة، أيقظ ألم عمر، وأسال مياه القهر في جوفه المشتعل. فز لاطماً إياه، متجها صوب البحر مديرا حوارا هامسا مع ملحه، منتظرا سطوع النهار، يردد " صعب ترويض البدوي إن جاع "، ودونما شعور باغتته إغفاءة بحرية سرّبت خدرا لذيذا إلى أوصاله المتعبة، ليوغل في منامة لا حد لها، لم ينتشله منها سوى صياح ديكة غجرية، تسللت بكسلٍ من أكواخ الرويس.

بماء البحر، وغبش البدء توضأ، والتحق بجماعة الفجر، وعندما علت تكبيرة الإحرام كان بدوي البارحة يصف الى جواره.

ما أغرب الموقف.. تساوٍ في الصلاة وتفرقة في الحياة !

Twitter: @ketab_n

ويعلو صوت الإمام (يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم) فتمتلئ عيناه بالدمع. بعد انتهاء الجماعة يقترب من حزنه، بدوي البارحة، يلجان معا منطقة حوار. يخبره أنه هارب من عشيرة أهدرت دمه في رحقان. يهيم على وجهه هنا.. مرة حمالا في البحر، ومرة يسطو على بضاعة أحدهم، وأنه البارحة كاد أن يفوز بامرأة ولكنها فرت، ومن فرط تعب الحمل، والكد نهارا لم يقو على ملاحقتها.

استغرب تبسم عمر، وحسبه يسخر منه. غير أن عمر التف على غضبه بسرعة، وأبان له أن امرأة البارحة ما كانت إلا إياه، بعد أن تخفى في عباءة، بحثا عن خلاصه وحريته، وبثه التفاصيل.. كل التفاصيل. تعاطف معه (ستر) كما أفصح عن اسمه، وتعاهدا على البحث عن الخلاص معا.

(لابد نلقى حل، لي ولك). قالها ستر وهو يفرغ من حشو غليونه بتبغ شعبي، نفاذ الرائحة.

اثنان اتفقا على مجابهة الضنك والتشرد والألم رغم ما يفرق بينهما من حدود بناها واقع مزر. بدا من نهوضهما ودخولهما غلالات النور التي بعثها الصباح، أن الرغبة في الفرار من التوحش توحد.

أخبره ستر، أنه أجبر على الزواج من ابنة عمه، التي سامته العذاب.

(العقربة كانت تحب زنيوط) نطقها مغتاظاً، وأكمل :

- ذبحتها، وزنيوط كان مسافر.

ثم كزّ على اسنانه بحنق وبدا فخوراً وهو يتابع :

Twitter: @ketab_n

عُقب شهرين، لقيته عند قبرها يبكي مثل المرا، فتحت قبرها ورميته جنبها وولعت فيهم .

أخذ نفساً عميقاً من غليونه وزفر متابعاً :

- غسلت عاري بالنار وشردت.

ناقمان ملآ الوقت بالحكايا، وشذى بهيج عنون الصبح المشبع رطوبة. بينما سنابيك صغيرة تفتح كتاب البحر، تلقي أشرعتها من أيدٍ خشنة نجحت للتو في ثقب عيون فجرٍ كالح، لتفتحها على جلود لا يقوى عليها الملح، والمواويل تتنابت في حناجر مصقولة :

(واوه يا حوتة..

كيف الجلب صادك..

وأنا صيادك ؟!).

يرقبهم ستر حتى يغيبوا في لجة البحر، ويبقى الصباح نافراً في مدينة ودعت صياديها. وعلى فم عمر تزهر الحكايات : **(كان هناك رجل، ماتت زوجته. وفي صباح يوم ما ، ذهب الى قبرها، وهو يحمل ناراً. فقابل في طريقه عجوزاً سأله : الى أين تأخذ هذه النار ؟**

- ماتت زوجتي، وأنا ذاهب لكي ادنس قبرها بحرقه.

- لماذا ؟

- لقد اعتادت أن تخدعني. إنني أدرد، لذا كانت تمضغ لي طعامي، ولكن بعد أن تكون قد ابتلعت كل عصارته اللذيذة، فيصبح الطعام الذي تعطيني إياه بلا مذاق.

- ومتى اكتشفت ذلك ؟

- الآن فقط.

Twitter: @ketab_n

- وكيف اكتشفته ؟

- تزوجت من أخرى، فلم تسئ إلي بمضغ الطعام، بل كانت تطحنه بدلاً من مضغه.

سأله الرجل العجوز : هل تتذكرني ؟

- لا.

- إنني الرجل الذي نصحك ذات يوم، حين كنت تنتحب على القبر. والذي قال لك : اتخذ زوجة أخرى. والآن أقول لك إن الزوجة التي تعودت أن تمضغ لك الطعام لأنك أدرد ، لم تكن زوجة سيئة، فلا تحرق قبرها لأنك عثرت على زوجة أفضل، بل اذهب وصل على قبرها ، وارم النار بعيداً. تذكر أنك لا تجد بين أبناء آدم شخصاً طيباً، إلا وهناك من هو أطيب منه).

يترنح ستر ضحكاً، رغم أن ليس في الحكاية ما يضحك. يبدي له عمر استغرابه من ضحكه.

الله يلعن شيطانك، كانك تقول إن الفاجرة " شويهينة " كانت طيبة؟

لم يجبه عمر قدر ما أمتد في حزنه. كانت الحكايات تحقق له توازناً، تصفي حزنه وتحيله إلى ذلك النوع من الحزن الشفيف، الذي يجعل الروح ترق وتشف عن مكنوناتها مبرأة من الاوشاب. وفي سحائب الحزن يترأى له أخوه يهتف به :

(احك يا عمر.. عندما تحزن احك واحك حتى يتآلف داخلك شئ يوقع بالحزن ويجهز عليه).

أما نظرات ستر الذي انتزعه من ضحكه الصاخب الصمت المطبق الذي حل بغتة فتقول له :

Twitter: @ketab_n

- ترى الحكايات كانت تسلينا، أشوف في عيونك حكايات كثيرة.

وعمر لا يتردد كثيراً لتبديد الحزن بالحكاية. " أما كانت ميمونة أحق بالإصغاء لما أختزن من حكايات " !.

فكر بعد صمت، وأطلق لسانه محرراً روحه من الهم :

(... عندما بلغ الطفل السابعة خلع الموت أمه ثم أباه، وبقي وحيداً، تظهر على جسمه البثور والقروح والقوبات. وبعد ان فكر طويلاً رثى لحاله قرر " الذهاب للبحث عن بقاء، وإذا حاول شخص الأضرار بي فما هو كائن لابد ان يحدث ". عثر على حداد آواه وصنع له شصاً ذهب به للنهر يصيد.

صار يجئ بالسمك وزوجة الحداد تطهوه ولا تطعمه منه سوى الرؤوس، فاض قلبه بالمرارة. أخذ يهمهم لنفسه " هاأنذا أخرج كل يوم وأعود بالسمك فلا يتركون لي غير الرؤوس بعد ان يأكلوا الأجزاء الشهية ". اقترب من النهر وقذف بالشص، وجذب سمكة. قذف به مرة أخرى ولكنه علق بجذع شجرة. فقد الشص، خاف من العودة الى الحداد بلا شص، ثم تدبر الأمر قائلاً " إذا كان لابد لي أن أكون فريسة للوحوش الضارية التي تغير على الماء، فليكن ذلك، لأنني لا أستطيع أن أترك شصي في الماء لأحد غيري ثم أعود صفر اليدين الى قرية لست إلا غريباً فيها " ثم غاص في الماء وسبح على امتداد الخيط حيث علق الشص. وعندما وصل الى قعر الماء أخذته الدهشة إذ وجد نفسه في وسط قرية شديدة الازدحام، ورأى أمامه أباه وأمه اللذين ماتا منذ عهد بعيد، وهما الآن يرحبان به ترحيباً حاراً، كانت القرية كلها في احتفال فساروا جميعاً

Twitter: @ketab_n

أمامه وأرشدوه الى منزل ملئ بالخيرات. أطلعه والداه على باب نهياه عن فتحه ما عاش في ذلك المنزل، وقالا له : " يمكنك دخول أية حجرة، فكل ما فيها من ثروة ستكون لك، ولكن إياك ان تعبر عتبة الباب المحرم ". التزم بذلك وعاش أعواما سعيدة الى أن تملكه الملل والسخط، فقرر فتح تلك الحجرة. فلما دخل كان أبعد من أن يجد نفسه في الحجرة التي تخيلها. لقد حمل الى اللحظة التي كان فيها جذع الشجرة ممسكاً بشصه. ووجد نفسه مرة أخرى في خرق بالية ، مغطى الجسم بالقروح والقوبات والبثور وحاقت به مرة أخرى كل ألوان التعاسة التي زايلته في القرية تحت الأرض حيث كان مع والديه.

كان الشص عالقاً بشدة في جذع الشجرة. قال لنفسه " لن يجدي شئ غير أن أعود الى الغوص في الماء وأرجع الى هناك " وغاص في الماء واختفى، ولكنه لم يصل قط الى دنيا أسلافه).

أرأيت كيف أضاع جاهل سعادته، لأنه أراد أن يرى شيئاً كان ينبغي أن يظل خافياً. مشكلتي يا ستر أنني أردت أن أرى قبل الآوان.

هز ستر رأسه بعد أن فرت منه ابتسامة لم يعرف معناها عمر. ثم سأله :

- يوم وقفت عند الأربعين، ما ونيت مع المجاريح ؟
- أنا من المجاريح.
- بس جروحك غير !

رد ستر متهكماً. أطرق عمر، وقبل أن يرفع رأسه سأل :

- أنت، لمن فتحت القبر ما ونيت ؟
- إلا والله " سليم.. سليم

Twitter: @ketab_n

ويش أسوي بمحبوبي
تلقى الخلا
واعطى المفاتيح عبد الله ".

كنت أوّن، وأرقص رقصكم، أدور حول النار، والطبول صوتها عالي وثقيل والشون يدور في يدي كأنه الدنيا.

وقفا إزاء بعضهما، ودارا مع الأفق، والصباح لم يعد نافراً، يترنمان:

(حليمة.. حليمة
خيطي ثوبي الملا
جديد النقوشي
لا لبسته يسليني).

راحا يفتحان أعينهما المملوءة بالملح والتعب، وبدآ المشي معا بمحاذاة الشاطئ. كلٌ منصرف لصمته وتفكيره، واقعين تحت نشوة الغناء. ابتعدا عن ملح البحر قليلا، وصادفا وجوها من اليونانيين والإيطاليين يترنحون ، تسندهم قهقهات غير مبررة، دون أن تلفت انتباههم. ستر أشعل غليونه، وعمر يملأ سيره بالمعوذات، ويضئ الدرب بآية الكرسي، ووسط تزاحم الوجوه ضاعا عن بعضيهما.

جال بناظريه في الأماكن المحدودة التي يعرف، اشتبه عليه اكثر من شخص، وعندما يئس من العثور عليه قال :

" هؤلاء البدو يتشابهون ".

واصل سيره دون أي تلفت للخلف، تربى على ألا يلتفت خلفه أبداً.. فالخائف يتحاشى النظر للوراء. حلمه محدد أمامه.

تكلم الألم في خاطره، لم يصغ اليه. الأمل يسحق الألم ليتوارى في أعماق قصية يفضحها خفوت الأمل.

Twitter: @ketab_n

استعان بما أمده به ستر من معلومات، والتصق بسواتر الأمل. قبض على اليقين.. حاذى حارة اليمن، وتوغل في أزقة يتناثر على جانبيها باعة التنباك، والليمون، والماء المجمع في زجاجات اقرب للقذارة منها للنظافة. وحين استطال مشيه، ملأت خيشومه رائحة المريسة والمديدة واللبن الفولاني الحامض، ومن بعيد كان صوت المدم يعانق طرقات النقرزان، يشتبك الصوت بالصوت ليطرح مر الكلام زومالاً يفيق تعب الساهرين :

(شطة بليادي

بركانو..

شطة بليادي

بركانو

يا فلفل اخضر

بركانو).

" هذه الأصوات أعرفها " هتف عميقاً لذاته، وكأنه عثر على بشارات النبع، فاشتاقت نفسه واطمأنت، تعالق مع المفردات وتفاصيل ما يرى، وعندما تعالت الرطانة فاضت روحه بوجدٍ قديم، وامتلأ بعبير الغابة. وللذاكرة روائح تفضح طفولة الأشياء وتعري الجغرافيا.

شم رائحة (السيريه).. تأكد أنه لحم بقر يخلط باللوز وما جف من فلفل حار، يشوى على النار بهدوء، وألذ اللحم ما كان بطيئا في شيه. ملأت رائحة الشواء رئتيه، طفق يبكي بصمت يشبه صمت الفجر الذي لاحت بواديه، يوم أن ألفى نفسه مسلوب الحرية في فيافٍ يجهل أسرارها، ولم يذق طعمها المر. وللفجر بوادٍ لا يعرفها سوى من يعيشها

Twitter: @ketab_n

حاضرة، فيخضّر وجدانه من خصوبتها ونضارة حزنها. يختلط حزنه بحزن لا يمنحه الا الفجر. دائما هناك حزن نضر فريد لا يخلفه الا الفجر.. يوقظك على حقيقة أن البداية من الفجر، فإذا حزنت عليك أن تعثر على الفرح ذلك اليوم. لكن حزنه كان مختلفا. حزن لا يمتد في الزمان ولا ينفصل عن طعم ورائحة الغابات. حزن لحظة مكسوة بما مضى، وما حفلت به أيامه من مكابدات حتى تمكن من الوصول لحارة برا، حيث تلك الرائحة التي تطفئ حرائق الروح.

أصاخ السمع لتلويحة النهار، (سلام عليكم) تتناثر بعربية رديئة ولكن ما فيها من يقين وإيمان يعطيها صدقا وجمالا يخترق سدود القلب (سراج من نور الغيب بدا وعاد جاوز السرج وساد). انه الآن وبما تبقى من قهر وندم يتوغل.. يتوغل كي لا يبقى عبدا.

لحظات فقط، لم يلتقط فيها ما يمكنه من ترتيب احواله، حتى فوجئ برجال البّاناخه، تنشق عنهم الأرض وتعبئ روحه بالظلام.

- من دلكم عليّ ؟

- واحد ابن حلال.. انت لسع ما تعرف البدو.

- وكم قبض ستر ذلك اللعين !

- امش يا مُعَرّصْ.. انت وهو ملاعين.

احتقن حنقا، وأضمر يوما للفرار.. حدد تفاصيله مثلما استعاد ملامح ستر، ودهشته لصلاة أدياها معا في فجرٍ ليس ببعيد.

قرر أن يفتح الأبواب في حينها. طرح أرضاً، ونال ضرباً حتى تضور.

من مخبأ كان تحسين يشير بذات الطرف، لأصابع خشنة يتقاطر منها ندى "... لا يقولون عنك عبد زينا ".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٦ . حلم ضحى مقدسي

(....سخمة تظلل ضياء يضطجع على جسدنا، يتسعتر شجر الحنظل تتهادى أوراقه على نبراتنا، تملأ أوقاتنا بشمعٍ يصعب تذويبه. ثبور عميق في كل الأشياء يا أبي، وحين يسدل الليل السجف، ويكسو الوجع كل غيمة تفكر أن تسافر منا، نتناثر بين السجف المظلمة، والقمع الذي يقذفه علينا مكامعو الخفافيش، لترتدي حياتنا حوافا معتمة.

أبي.. موالنا مكسور، وتغريد الطيور تطرزه الرتابة. وشم في وجه الريح المازالت منغمسة في حمأة الشهوات، والاغتراف من البراميل الخارجة من جلودنا، وأحلامنا الصغيرة طافحة بالزيت. تربة الحناجر تقف عثرة أمام انفلات الأغنية من ارتخائها، والقار عفّر الكلمات.

في برد الشمال تأخذ حبات الكستناء لوننا وتحترق على جمرٍ يشتعل على طرف ثوبٍ ترتديه فاطمة البرناوية. يا أبى لا تدع أوصالك ترتعش..

قطرات الزيتون لا تتركها تقف عثرة أمام ركض الماء،

صفِّد الرجفة..

ألق بها في مساحات التوجع..

لا تقترب من همك كثيرا فيصفو لك وتتقمصه.

Twitter: @ketab_n

رداء الحزن لا يتمدد يا أبى فيعمّق فينا دغالته.

الأمل يقهر الألم،

دع الحزن يتزياك ولا ترتده أنت فيتشمع ويكون أدمتك..

كن آدم الذي لا لون له، أو أن السماء لم تحدد لونه، بل توهمته نزعات البشرية حين تحيونت فانحازت، وتنازعته، ولو عاد لكساهم ريش طيرٍ لوّن جناحيه الأفق، وتلاشت سدود الاحتقان المالئة ممرات ديمة حائرة.

أبي.. وحين أناديك أشمُّ العرار، وأرى الغزو يخرج من قمقمه والغزاة يطوقون البيد.

العشائر تخرج شاهرة سيف الجوع والبغض، والضغائن تحتقن في صدروها.. فأين تُدق أوتاد الفتنة يا أبي ؟

على لسان البحر الذي شربته الفقمات ؟

أم في شجر الصحراء الذي لا ينمو، وإن نما يعافه المطر ليبقى طلحاً وصبارا ؟

أم هي تختبئ نائمة في ثياب البدو، وغداً عندما تتناهش الصقور والنسور لحم جبالها تتناحر الأعراق، ليعود الدم القديم الى الجريان هائماً في وجع الأنساب وحيرتها، يروى عطش التراب ويفاقم البؤس. يرفرف الجدري، والحمى تضوي بأجنحة من نشيد نفاق، وتبقى أضواء الكتاب تلمع في الصلوات ومآتم الأجساد الفانية ؟

أجساد أفناها سعار أراض بور، وسعار وطءٍ، وشراهة طينٍ يغمر الروح بعد أن يدنسها ويلبسها عتمات تخز حد الفناء. ولا حداء يفجر الطمأنينة. والعرافون يطحنون تعب الناس، خبزاً لسقاة المساقط التي تنز دراهم، وتذيب الزئبق الأحمر في كؤوسٍ لا يقربها السقاة ولا السفهاء.

Twitter: @ketab_n

أنا الآن يقظة في ضياء انتظارك، ربما أكون صخرة ملساء تنزلق في حلوقهم، لكني لاأتقد الا بك.

هل تجئ لتمنحني لون قوس قزح ؟

تعال أعلمني ما جاء في النبأ القديم الذي أوصيت به ولم يسع زماني.

نبأ منسي موسى، وبلال ووحشي وفودي والألفا هاشم، وكل أحمدٍ امتلأت روحه بعبير الغابة..

أبي انتظاري لك قد يمنحني الشموع، لكن إيقادها مرجأ لقدومك. وفي جدار جمجمتي النيئة، نقش قديم، تدوسه قوافل ملح أروان.

ألواح ملحٍ، تصنع بيوتاً يذيبها مطرٌ قاسٍ، يحيلها الى ركام يكوّن أغانٍ رائبة، تصعد لحزن سماء لزجة تنث الوهم. لن أنشغل بحياكة الوهم، وأكون مقبرة لصوت الصفير الذي ينسل من بطن الأودية والتراب الجائع..الظامئ للدم القديم. والألوان التي تفتك بصفحة آدم.. تشرد من الحِكم التي وزعها في صفحته يوم أن اندفعت حواء من ضلعه.. كان ضلعه لا لون له يا أبى.

أجل لم يكن للضلع لون قدر ما منحته النوايا والطبائع التي انسلت من الكاسرات، والجانحات، والجارحات، والهائمات، ألوان الفرقة، وصبغت القدم التي اخترمت في خراب الأرض بتشققات الطين .

لن أكون يا أبي مثلهم قاسية، أطعن حداء الصحراء بتحجير الفؤاد، وأبقر ضياءات المساء، ليصير الضوء باردا، ينبعث من حنايا الرعاة، والرُحل قميئا، حاقدا مشوباً بطعنة سكين .

ما بال الانتظار لك صار موال استغاثة في نهر أبراه اليبس.

Twitter: @ketab_n

أبي من عندك الآن، في قلوبهم يبس، كما من عندنا ؟
أم أنهم حالمون كماك ؟
القلب هنا يا أبي متدرن كليل اليتيم...

يهتك الطعم والرائحة والأمل، بينما الرعاة يخرجون من جوف الارتعاش يبحثون عن ثقب يرسلون عبره صرخة للتاريخ تزيح الأقنعة. تعطي البشر وجوهاً واحدة، لا تتبدل، وتستعصي على المسخ، ولا تقف على ابواب الخليفة تستجدي الخبز والملح والأريكة وشياهاً ضامرة.

وحين تمضي وقد أفرغت أيديها من أوراق عرض الحال، يتناولها بصاق الأحذية، ويجف الحقل في انتظارها فتغدو تختبئ وراء الأقنعة. فيرسلونهم في الظهيرات لاقتلاع الحجر من البحر، لتكوين عرائش من ملح وماء وفاكهة وأبًا.

انتظرناك " حتى أفقنا على مرار نأيك يا أبي ".

أبي أسألك: هل ابن بطوطة منهم.. استعصينا عليه ولم يستوعبنا. سمعته.. صوته ضال يرتطم بتلك الأيدي التي قبّلت مؤخرات السلاطين و قبل أن تثقب الزنكلية أذني :

" قدمتْ على السلطان منسي سليمان، جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم، معهم امير لهم. وعادتهم ان يجعلوا في آذانهم اقراطا كباراً، وتكون فتحة القرط نصف شبر، ويلتحفون في ملاحف الحرير. وفي بلادهم يكون معدن الذهب. فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادما، فذبحوها وأكلوها، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين. وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه، أن يفعلوا ذلك. ويقولون أن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي ".

Twitter: @ketab_n

هل كان آباؤك يأكلون لحوم الناس يا أبي.. وما الفرق بينهم وبين هؤلاء الأعراب.. بالله عليك يا أبي لا تتركني احتار.

كيف تجردون الخادم من لباسها وتطفئون سجائر المردة عليها !

بالله عليك وابن بطوطة كان يراكم " في لباسكم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدكم الا قميص خلِق، غسله ونظفه وشهد به الجمعة. شهد عنايتكم بحفظ القرآن العظيم.." وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظون. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون، فقلت له : ألا تسرحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة، عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟. ففهم عني الشاب وضحك، وقيل لي : إنما قيد حتى يحفظ القرآن.

إنه صوت ابن بطوطة، حشد رمالاً نثته عمامته في ثقب أذني وأخفى قرطي يا أبي، كيف تقرؤون القرآن وتأكلون لحم البشر وتفسدون في الأرض، يا أبي ؟!

هل تقع المظالم والمفاسد والقرآن يتلي كل الوقت يا أبي؟ أم على قلوب أقفالها. هذا الكتاب.. أنقرأه ونحفظه فقط.. أم ننسجه سلوكاً ينقي الصخب والعبث ؟ !

هل رأيته يا أبي جالساً يربط خفّيه إذ لاح له شخص، فنظر إليه فإذا رجل أسود بيده إبريق وعكاز، وعلى كاهله جراب، سأله واكتشف أنه تائه مثله، ثم ربط ابريقه بحبل كان معه واستقى ماءً وتوضأ وصلى ركعتين وسأله عن اسمه فقال له " ابن بطوطة ". سأله عن اسمه فقال له

Twitter: @ketab_n

" القلب الفارح " فتفاءل وسُر به. ثم قال له : بسم الله ترافقني، فمشى معه قليلاً حتى وجد فتوراً في اعضائه ولم يستطع النهوض فقعد، وأخبر أنه كان قادراً على المشي قبل أن يلقاه فلما لقيه عجز. فقال : سبحان الله ! اركب فوق عنقي.

ابن بطوطة اندهش: إنك ضعيف.

فقال يقويني الله. فركب عنقه بعد أن طلب منه قراءة " حسبنا الله ونعم الوكيل، فأكثر من ذلك وغلبته عينه ولم يفق إلا لسقوطه على الأرض، استيقظ ولم ير أثراً للرجل.

إن سقطت إنهض ثانية يا أبي، وابحث عني.. تجدني لحناً في تغريدة كل طير غير مرتعش.. في كل كستناءة تتأبّى على الحرق بين يديك الآن.

لا تلمَّ قدميك دائما يا أبي.. قبضتك لا تبنذها ولا تبسطها كل البسط، ولا تبقي الصوت داخلك فيخنقك، ويتيح لبذور الشر أن تتكاثر فيتعطل تدفق الينبوع وتعمنا الكارثة.... أبي يا أبي هل تصغي اليّ ؟ سأهزك.. اعذرني أهزك لتزداد إصغاء).

- وهزتني فطار النوم من عيني سرب حمام مذعور. أطرقتُ، تعوذتُ ثلاثا ،وبصقت عن شمالي. قرأت ما تيسر من القرآن. فزعت إلى الله حتى اطمأننت، وهجعت كل النسور التي كانت تغني غناء نابياً، وتحشد الوهن والخوف في أطراف الجزيرة. عرفت أن ميمونة أطلتْ بكل ما في الدنيا من عدلٍ وعشبٍ صادق الخضرة، لا ينمو إلا في تربة صالحة، أهلها صالحون، تناسوا أنهم أعراب كانوا يغيرون على بعضهم، يسبون نساءهم ويأكلون لحم رجالهم مطهوا في أوانٍ من شمس.

Twitter: @ketab_n

- يا شيخ عيسى لا تفتؤ تذكر ميمونة حتى امتلأ رأسك بالكوابيس التي ترهقك كل ليلة.

- لا أظنها كوابيس يا راجح. كنت أقرأ ما اصفّر من فم الأفّاق ابن بطوطة، وكنا نتناقش بحدة البارحة بعد العشاء فنمتُ بثقل. رأيتها في بياض الصبح، خارجة من شذى النعناع، يأوي إليها حمام الحرم، يحملها في أجنحته ويمشي بها، يدفعها مطراً ناعماً نحو نخلة انتظرت تحتها أمها. نعم رأيتها..لسانها قلم، وأصابعها قناديل تضئ وتخفت، تدس شعاعاً لحبٍ موجوعٍ بالحنق تحت سلع حتى تختمر العفونة. كتبتْ في قلب النخلة ما لم أتبينه.. عدا هالات متأرجحة، تظهر في أحشائها " عمر " متعباً لائذاً بالتمر، والحطب، يعلك لباناً جافاً، وأعراب صغار يتسلقون صدره، ويأكلون من قلبه كل ما دس من أناشيد .

- اذن يبدو أن ا بن بطوطة والأشياء والتهاويل اختلطت بمولودك الذي لا تدري أذكر هو أم أنثى، وحشتْ نومك بالمريع من أضغاث الأحلام .

- بعد حلم البارحة.. لست أدري يخامرني إحساس قوي بأنه أنثى، كنت اسمع صوتها شفيفاً حنوناً متشققاً يعكِّره نثيث ابن بطوطة .

- هوّن عليك يا عيسى، ستنتهي رحلتنا للقدس ونعود لير قلبك.

- تعرف يا شيخ سقاف، إن اكثر ما يشغل قلبي هو أمر العرب.

- منذ فترة وأنت تلح على هذا الموضوع، رافقتنا فترة طويلة، هل رأيت فينا أو منا ما يسئ لك، أو يجعل حدودا فارقة بيننا.. كلنا مسلمون يا شيخ أبو ميمونة.

يرد عليه مبتسماً للقب:

Twitter: @ketab_n

- نعم أنت عربي من سلالة المصطفى وغيرك هنا من العرب الشيخ قاسم وأبو انس وجمال سقا وسعد الخضري وشريف وراجح المحتسب ومبارك المزروع ورفيق الدهل وأبو حليمة الالواني، ويوسف أبو يابس أنقياء تخلصتم من وهم الأمجاد والعراقة، وقبلتم بي وباخوتنا من جاوة والهند وبخارى وتركيا. آمنت بأن العروبة ليست بأب ولا أم، ولكن بعضاً من رهطنا لم يؤمنوا.

يتدخل الدهل ضاحكاً : الأعراب أشد كفرا.

تحت سماء قدس معفرة بالرماد، يدور جدل ملتهب بين رهط رحلة التقديس. يتناول أوجاع رعاة بُهمٍ، في صحراء أجدبت حتى أطفأت المشاعر، وأحالت الأحاسيس الى صخور ناتئة، تملأ الجسد بالرغبات والشهوات والإحن. فاض وقتهم بلحظة أموية.. رأوا دماءها تسيل، منذ أن خاطب الرأس حامله (فرقت بين رأسي وبدني، فرق الله بين لحمك وعظمك).

خاضوا في منطلقات التشعيب، والسقاف لاهٍ عنهم يدندن هامساً:

قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا
في قتلك التأويل والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلت وانما
قتلوا بك التكبير والتهليلا

انتزعهم بصوته العذب من لؤم الخصام، وحرارة الخلاف. ولما نطق عيسى باسم المنسي موسى. تساءل الدهل ممتعضاً عمن يكون هذا ؟ "طفشتوني بسيرته" قال.

Twitter: @ketab_n

أدرك السقاف امتعاضه، والتقط الحديث بإشراقة وجهه المبتسم، ناثراً في أجواء المكان قدراً من الوقار والإصغاء :

- ياله من ملك عظيم. سمعت قصته قبل أن التقي الشيخ عيسى بسنوات، يرددها المصريون كأنه اسطورة. ورحلته للحج عن طريق مصر، شهيرة تناقلتها الركبان. كان موكبه من أروع المواكب التي شهدتها مصر لحاج من الحجاج حتى ليبدو وصفه مبالغاً فيه. الركب يضم عدداً كبيراً يصل الى ستين ألفاً. و قافلة الملك تتألف من ثمانين جملاً، يحمل كل منها ثلاثة قناطير من التبر، بخلاف الهدايا النفيسة التي أحضرها الملك ليقدمها الى العظماء والملوك. وأمام موكبه يسير ٥٠٠ من الأشداء يحمل كل منهم عصا من ذهب، قدرت أثمان هذه العصي بملاين الجنيهات، واثنتي عشر ألفاً من الوصائف، لابسات أقبية الديباج والحرير اليماني. كان طريقه قفراً، وأحست الإمبراطورة برغبة في الاستحمام فأقيمت بحيرة صناعية لاستحمام الملكة. سكان القاهرة ظلوا يتحدثون عن هذا الموكب الفخم طيلة مائة عام بعد مروره بها. ولما وصل منسي موسى الحجاز، فاضت خيراته وهداياه على سكان الأراضي المقدسة حتى لهج الجميع بشكره والدعاء له. ولم تكن خيرات الإمبراطور وهداياه مقصورة على مصر والحجاز، بل نعم بها الناس والقبائل على طول الطريق من مالي الى مكة المكرمة.

فرح غامر يحدد جلسة عيسى، والكل منصت للسقاف، الذي فرك يديه بعد أن ارتشف من كوب الشاي رشفة عجلى، وأكمل :

- في رحلته هذه التقى منسي بمهندس عربي شاعر من عرب الأندلس اسمه " أبو اسحق الكاحلي " .

Twitter: @ketab_n

يصحح له عيسى : " الساحلي " .

يتابع السقاف :

- وصحبه الى بلاده، بنى له قصراً جميلاً وكذلك مسجداً عظيماً في تمبكتو، وأغدق عليه من الأموال ما يشير الى كرمه وذوقه الجمالي العالي.

يرين صمت خفيف، يقطعه المحتسب معلقاً :

- يا لله، لكأنه عربي !

يتبرم السقاف.. يستغرب أبو يابس تبرمه. ينتبه السقاف، ويوقف انطلاقة لسانه مكملاً حديثه بعد أن أفرغ بحركة معبرة وسريعة ، ما بالكوب من شاي في جوفه :

- هذه واحدة من الأوهام التي أشار إليها أبو ميمونة.. نحن كعرب نظن جازمين أن سوانا من غير العرب ليس لديهم أخلاق وقيم نبيلة. نتوهم أننا وحدنا نعرف الكرم والغيرة والشهامة والنخوة وكثير من الفضائل، رغم أن هذا غير صحيح.

يتأفف المحتسب مستنكراً بلجلجة تبينها السقاف .

- كل شعوب الدنيا لديها قيم.. تعرف الكرم و عندها أخلاق ونبل وغيرة.. ولكنها تفعل وتمارس أكثر مما تتكلم وتخطب .

المحتسب يتكئ، ويمسح قطرات عرقه. ولم تغب ابتسامته التي عرف بها في أوقات معينة من أيما حديث، تتقاطع مع ابتسامة السقاف ليتبدد أي غبار. انطلقت آهة حرى من الجميع. صمتوا قبل أن يعاودوا ثرثرة الضحى. تداخلت الرؤى، ساخرة، باسمة، ساخطة. دك المكان صلاح الدين، بسنابك خيل انفلتت من ربيع جراح الكرد. وخرج ابن

Twitter: @ketab_n

القاسم من حقول عنب طائفي جففته ثقيف، ثم عصرته، وعبأت منه دناً، حمله أبو محجن الى العراق. قال عنه السقاف مقاطعاً رواية المزروع:

- هذا الرجل كان صادقاً، يمايز بين دنه ودينه، فلم ينافق، ولم ينس نصيبه من مباهج الحياة الدنيا.

تنحنح المزروع، وهمهم أبو يابس (استو.. استقيموا)، فغرق الكل في ضحك صاخب. وحين صمتوا كان عيسى خارج طقسهم، يتخيل ميمونة، ويغيب في إغفاءة ضحى مقدسي، ليراها (كومة من نعناع. يمد يده ولا يطال إلا رائحتها. ينتزع أقلاماً ويكتب حتى يدوخ. ثم ينتقي من النعناع ورقة ورقة دون أن يتبينها. يفرك أنفه جيداً، يوغل في النعناع، وهي تسرب إلى أنفه كلمات، علّه يشمها. تقذف في وجهه شخصاً يشبه ذاك الذي سيناولها صفيحة، ويقول كلاماً يصفهم فيه دون أن تفهم، وترى البط يسافر بعيداً..تناديه بعيداً، فلا يلتفت لندائها الذي يلتقطه الحمام مع حبات الشعير المتسخة، ثم تجلس في حجرة تنصت للهديل، وتقسم له أنها ميمونة. فيروح يدفعها، ويستغيث بالسقاف، يوصيه، فتستيقظ. تبحث عنه فيقولون لها أنه مضى باتجاه تمايل النخيل بضحبة البدويات الوادعات).

لم يتنبه إلا على صرخات أحدهم :) فين وصلت ؟).

امتدت حواراتهم حتى تخوم حضارة شادها التآزر، حين التقت شعوب النهر والحقل والبحر والغابة والصحراء. امتزج النار بالثلج، فمنح الأرض مهجة للحبور، بينما كانت نسائم الضحى المقدسية، معفرة بالرماد، تلتئم فوق رؤوسهم، والجدل يحتد، ويهدأ. فيما الظهيرة

Twitter: @ketab_n

تقترب. ثم يبحر الجميع نحو صمت ذكرٍ يرفعه السقاف، ترقباً لظهيرة تحدد موعداً للعودة.

* * *

عقب صلاة الظهر انتخى عيسى بالمحتسب، والوقت المقدسي صار فيئاً رحيماً.

- يا شيخ راجح أرجو ألا تكون غاضباً مني. لقد كنت أتحدث من محبة، وبقلب مكلوم. وحلم ميمونة دوخني، أدخلني منطقة من الحدة. إنني فزع وخائف على زوجتي وابنتي وأخي. لست أدري ما حل بهم، فاعذرني.

يمط المحتسب شفتيه قبل أن يجيب.

- أولا أنت لا تعرف مولودك، أولد أم بنت. ثم أنك تحاملت. وسيمضي وقت حتى أنسى إساءتك.

- اسمع يا محتسب أنا فرح بطفلتي، وليس الذكر كالأنثى. أنتم لا تحبون الأنثى، وأظن أن الصحراء جعلت احتياجكم للذكر يغلب على حبكم لها إلا عندما تثار شهواتكم و....

يقاطعه المحتسب وقد علا صوته :

- عدت سيرتك الأولى. لم كل هذا التحامل !

سمع صراخه السقاف، فهرع نحوهما.

- اهدأ. علام هذا الجدل السقيم. فكرا معاً كيف نتجهز لرحلة العودة، وتذكرا (أن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها).

على مضض يصمت المحتسب، ويردد في نفسه (والله ما من حية إلا هذا الأسود). بينما السماء تخلع حجاب القتامة، وتسفر عن رعد وبرق، جعل الرهط يرتعدون.

Twitter: @ketab_n

رفع السقاف يديه للسماء، وكأنه يكاد يشق الأفق بسبابته. خاطب عيسى : أظنك تحب البرق، على عكسي. تبسم عيسى وانطلق يحكي (عندنا، إذا ظن واحد من الناس أن البرق سيصدمه، يقول " إنني رجل من ايبكو "، وحينئذ يتجنبه البرق. البرق عندنا من مظاهر قوة السماء. من يقتله البرق نعتبره مختاراً من الله. وفي أزمنة الجفاف الحاد، نسوق شاة الى الجبال، يقال أنها تصبح برقاً وتجلب المطر).

يعلق المحتسب مصطنعاً بسمة يخبئ بها حنقه :

- ان شاء الله يسقط، ويقتلع هذه الوساوس من رأسك اليابسة.

يرد عيسى ضاحكاً :

- لا، يكفيني أن ابلل رأسي.. ان اليبس ليس في الرأس فقط يا صاحبي!

شحبت ابتسامته المصطنعة قليلاً لكنها لم تثنه عن القول :

- يصير خير !

يبتسم عيسى.. يتضايق السقاف. وأبو يابس سادر في شرود تقطعه كلمات السقاف :

- ألم أنبهكم بأن الكبر يحول دون التعلم !

في ظهيرات تاليات، احتدم الشتاء، أشاع صقيعه شيئاً من دفء الحب، وما يشبه الحب بين المجموعة التي أخذت تعد العودة وتتهيأ للرحلة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٧ ـ سراب مشتاقة

..... وتبقى أمي في رباط خيري. تعيش على ما أبقاه عمي من مال يسير، تركه وقال بأنه سيكفي حتى يعود.

تهاوت الأيام علينا. صبر أمي يشارف على النفاد، وما معها من مال يقل ويقل. لم يجئ أبي من قدسه وأطال عمي غيبته.

تمضي الأيام قاحلة سوداء، وأنا وأمي وخالتي نقتات من صدقات الرباط، ومساعدات تصلنا بالاسم لا نعرف من يبعثها !.

وأمام نموي، وازدياد طلباتي، تضطر أمي لتعلم صناعة (الخصف) والخزف. تشكل من الطين أواني ودوارق وقللاً، وتصنع من سعف النخيل مباسط للطعام.

كانت تمضي مع شروق الشمس، برفقة نساء البدو الى قباء.. يلقطن سعف النخيل، وينقعنه في الآبار حتى يترطب وتسري فيه ليونة الماء، ويعدن مع الأصيل وقت أن تكف الشمس عن قسوتها. يجلسن يخصفن.. ويصنعن مرواح تحرك ما جمد من هواء حار، ومكانس تنفي الخبث. وأنا ألهو فرحة لا أدرك سر لمعان عيني أمي وشرودها، وتلهفها الفائق عند سماعها نبأ قدوم قافلة من الشام. وعندما كنت اسألها بلثغتي البكر :

Twitter: @ketab_n

- يعني ايش شام ماما ؟

تجيبني :

- يعني بابا.

فأعود أسألها :

- اش يعني بابا ؟

فتهرب مني باكية.. فألحقها في زقاقٍ قريبٍ وملاصق للحرم، فأبصرها قد انتحبت، وعندما تلمني، تضمني وتوغل بي داخل الحرم.

ذات صباح خرجت أمي كالعادة الى قباء.. وتركتني عند بعض العجائز، ألهو مع أطفال أحسبهم اخوتي.. لأنهم مثلي كلهم يقولون لأمي " ماما ".

جاء رجل يمتطي بغلاً. سمعت العجائز يصفنه بأنه من " بدو مكة "، وسمعته يسأل :

- وين الحاجة أم ميمونة ؟.

فزحفت نحوه وأنا أرتعد من بغلته وطفولتي تقطر نشوة تهتف باسمي :

- أنا أنا ميمونة.. أنا ميمونة.

- وين أمك يا بنت ؟

كان بشوارب ضخمة ووجه يشبه السكين، يمسك عصاة مشتعلة حين يضعها في فمه يخرج منه دخان نتن.

خوفي من شكله.. أنساني أين أمي ! ولما كرر السؤال بجفاف.. أجبته وأنا أبكي :

- ماما هناك.

Twitter: @ketab_n

- هناك وين ؟

- هناك.. وخلاص.

وهمّ بدخول الرباط، ففزعت النساء، ورحن يولولن بلغاتهن.. فضحك وكأنه علق :

- ول عليكم يا عجم.. هنود وتكارين.

وخرج. فعدت مذعورة لحضن خالتي في الرباط ولم أتابع غيابه.

عادت أمي مع الأصيل. محتزمة تعبها، وعلى رأسها جريد النخل. ركضت إليها مبشرة، وعادة كنت أعرف موعد عودتها فأنتظرها لتضمني، وتبكي بي عند الروضة. باغتها قبل الدمعة الأولى :

- ماما فيه واحد.....

ورحت أصف لها المشهد، فتهلل وجهها بشراً، وصاحت : عمر !

خرجت النساء العجائز من الرباط فرحات، وتراطنّ بلغة لم أتعلمها.

فأخذت أمي تهزني سائلة :

- ماذا قال لك ؟

فارتميت في أحضانها أبكي، جذبتني بحنو عنيف، وشاركتني بكائي، وخرجت العجائز يبكين أيضا. تمادى عزف البكاء بأسى لم يقطعه إلا صوت أذان المغرب، فتفرقن. وولجت مع أمي الحرم.

بينما أمي تصلي شاهدت نفس الرجل في ظلمة لم تتكثف، ولكنه بلا عصاة في فمه. ارتج عليّ الأمر، فهمست في أذن أمي :

- ماما.. ماما، الرِّجال حق مكة.

أصابها الهلع، فقطعت صلاتها وسألت :

- فين ؟

Twitter: @ketab_n

وأخذت أشير اليه بأصابع مرتعشة، وكأنما لمحني وابتسم.. فضحكتُ، وأغضت أمي رأسها. ناداني بإصبعه.. فخفت ولذت بأمي.. فنهرتني:

- ايشبك !

والتفتُ، فأبصرته يلح في مناداتي. طمأنتني أمي ودفعتني نحوه. ذهبت، فأبتدرني بالسؤال :

- انت ميمونة ؟

أومأت له برأسي.

- ذيك أمك ؟

أومأت ثانية. فأدخل يده في جيبه، أخرج صفيحة مستديرة وقال:

- روحي أعطيها أمك، وعلميها هذي لها.

أسرعت نحوها.. فارتابت في البداية، ثم هدأت بعد أن تراطنت مع من بجوارها من العجائز.

صباح اليوم التالي لم تذهب أمي الى البساتين، وانتظرت حتى أضحت الدنيا لتمر امرأة أراها لأول مرة. أخذت الصفيحة، ولما فتحتها، أخرجت منها لفافة ورق مصفّرة، أعادت الصفيحة لأمي وخرجت بعد أن تبادلت البسمات مع أمي. وعادت ثانية بعد الظهر. وبعد حديث صغير مع أمي، وقفت أمي تزغرد، وأخذت ترطن مع العجائز، فملأن الرباط بالزغاريد. فابتهجت معهن دون أن أعرف السبب. وارتميت في حجر أمي أسألها، فأخبرتني أنه عمي.

بيد أن هذا السرور الطارئ سرعان ما بهت. تغير وجه أمي وبدا الدمع يتجمع في عينيها، ليتفجر مراً مدراراً، وعاودت الرطن مع العجائز، وأنا لاأملك الا أن أبكي حتى يسلمني البكاء للنوم.

Twitter: @ketab_n

نمت طويلاً انتظاراً لعودة أبي ثم كان أن صحوت باكية وتلوت لأمي كل الحلم. أمي لا تعلق كثيراً على حلمي. تكتفي بالتبسم وترسل بصرها للسماء. تقتات من السعف، والخوص، والخزف، وما يرسله عمي مع قوافل تنقل تمور المدينة لمكة. وتأتينا الأخبار بأن الطريق صعبة، محفوفة بالمخاطر، حيث الأعراب يترصدون للحجاج.

كانت أمي تتكلم وأنا لا أفهم جل كلامها، وكأنها تقبض سلوى، أو كأن الكلام يطمئنها. وعندما تشعر بغريزة التجاوب مع الحديث تهملني وتتجه نحو العجائز.. يتراطن، ويظهرن كمن يصبّرن أمي. وأنا أتأمل، ثم أتغرغر بدموعي، فتضمني أمي لأنام، ولا أصحو الا على ذهابها لبساتين قباء بعد أن تضرجني الأحلام المليئة بالبط والنعناع. ومرات تجئ الزنكلية خلسة، تسميني سكينة، وتدفن يدي الصغيرة في يباس يدها النخلة، تلج ملامح رجل، وتذهب بي للبقيع. نقف نبكي على قبر فاطمة، حتى ترتوي، فتعيدني للبيت طاهرة يشع مني فرح بلا لغط ولا شائبة.

صارت أمي عندما تعود، تبقى شاردة الذهن. عيناها عليّ ولكنها لا تنظرني. أظل أشوّح بيدي فلا يرف لها جفن، وحين تنتبه، تبتسم لشوان، وتعود لشرودها. ثم تهب واقفة، وتعود للعجائز يمارسن رطانة تقهرني.. لأنها تفصلني عنهن. يدور بينهن كلام كثير.. يتعبني لأنام.

وعندما أصحو صباحاً، أرى أمي حزمت أشياءنا، والدمع كثيف في عينيها، وتجرني للحرم.

صلت قليلاً، وازدادت كثافة دموعها فأخذت تنهمر.

خرجنا من الحرم، واجهنا الزنكلية، مرت كالريح تجر حبالها بعد أن

Twitter: @ketab_n

منحتنا ابتسامة، وعيني تلاحق يدها النخلة. عدنا للرباط فغلبها النحيب. وأنا حائرة بين ابتسامة الزنكلية وبكاء أمي، لا أدري ما يبكيها.

- ماما انت وجعانة ؟

سألتها.

فأجابتني بمزيد من البكاء الحاد، والنساء يربتن عليها وأنا أصرخ فيهن :

- ماما مو وجعانة.. لا..لالالالالالالالالا.

وأسألها :

- انت وجعانة ؟

فتبكي ويصّاعد الأنين.. يبكي الرباط، وترفعني أمي متحزمة بقشة، وفي اليد الأخرى سلة من خصف، ونمضي، عيناها للأمام، وأنا ألتفت للرباط، وخالتي أصابها الخرس، والنساء ينتحبن على بوابته حتى يغيب، ونغيب أنا وأمي في باحات عريضة مليئة بالجِمال وأعراب كثيرون، وأسمع واحدهم :

- حجة..حجة..مكة.. ينبع مكةةةةةةةةةةةةةةةةة.

والآخر يسحب أمي ويصيح أيضاً :

- مكة مكة مكة مكـــةةةةةةةة.

وأمي تطيح فأنكفئ عليها، وتحرقني الشمس والجوع والفزع. أهزها فلا حراك لها، وأبدأ أصرخ.

(كنت أصرخ.. أبي حاذر، ابن بطوطة يصعد على اسمك، ينهش ما لا يراه، وأنت طيب النوايا، ساكن في سمرتك، لم لا تكف عن ملاحقة رائحة النعناع، لم لا تدلق عليه مجمرتك).

Twitter: @ketab_n

حملت نساء البدو الوادعات مجامر، بخورها لا ينطفئ. وأبي كان يقول لي وقت أن كنت كومة نعناع " نساء البدو يختلفن عن رجالهن، يبدو أن الاضطهاد يخلف رقة ".. رشوا على أمي ماء، وأنعشها بخور يسيل من المجامر، ند، ومصطكى. تفتح عينيها، وتمد طرف لسانها، تلحس قطرات ضلت الطريق الى فمها، وأنا أبكي مرتين.. لحلم تناهبته الأيام ولصرع أمي، وبدوي يسألني :

- وين أبوك ؟

لا أفهمه .. وأشير نحو أمي:

- ماما.. ماما وجعانة.

وهو يلح عليّ :

- وين ابوك ؟

والنساء يأخذن أمي لسقيفة مفروشة بسعف، وهي تتشبث ببقشتها وسلة الخصف، وتبحث بيديها عني ولا تقوى على الكلام، فأشعر برغبتها وأهتف :

- ماما أنا ميمونة.

وتجمع رجال البدو، وفضولهم يحجبني عن أمي، واخترقتني الشمس، حتى أدخلتني في دوار، لانكفئ على أمي ، وأغيب في جسدها.. جائعة محمومة حزينة.

استيقظت.. فإذا بي فوق "شقدف" على جمل، وعلى يميني مساحة من صخور جرداء تلمع سواداً، وأمي حولي تسند رأسها على راحتها، وحولنا جمال، وبغال، وحمير، تسير، وليس الا الصمت والسموم، وريح تدفع بذرات الرمل نحو وجوهنا لتزيدنا ضنكاً على ضنك. عطش وغربة وحزن و وترمل، ويتم لم نتحقق منه.

Twitter: @ketab_n

أتأمل أمي طويلاً، أهزها فلا تحس بي. وعندما أبكي تتنبه لهزي اياها وتضمني لصدرها، وتروي جسدي المحموم بالدمع.

ألتصق بها بعنف فأحس جسدها حاراً صاخباً بالحسرة.

تخدرني حرارة جسدها، فأستسلم لنوم بليغ صريح.

أستيقظ مذعورة على جلبة وصياح :

- الحرامية.. الحرامية.

فتضمني أمي غير مستوعبة ما يجري.

ليس الا الظلام، ورغاء الجمال، ونسمات باردة.

أكثر أفراد القافلة نائمون في عهن الليل، على ظهور الجمال السائرة، وقد أضناهم التعب. يقترب خمسة أو ستة بدو من الجمال التي يبدو أنها أثمن حملاً من غيرها. حِملُ الجمل مرتبُ، بحيث تكون البضائع الى جانب، ومؤنة الطريق الى الجانب الآخر. فبينما يفتح بعضهم الحمل وينتزعون منه البضائع، يسند البعض الآخر المؤن من الجانب الآخر لئلا تقع، فتوقظ المسافر الذي لابد من أن ينذر القافلة بالخطر. ولكنهم لا يكادون يفرغون رزمة البضائع، حتى يرخوا كل شئ ويلوذوا بالفرار، وتثور ثائرة الجمل لدى رؤيته صاحبه وما تبقى من الحملة يسقطان على الأرض، ويتملكه الذعر ويحاول التخلص من افاقه. وغالباً ما يوطأ صاحب الجمل بأخفاف بعيره في غمرة تلك الضجة فيفقد حياته.

الأعراب يجرون بسرعة فائقة. كان أحد الجاوين يتوضأ، فأقبل اعرابي من ورائه واختطف ابريق وضوئه وراح يجري كالسهم. ثم من يصيح في القافلة :

- ترى يا جماعة المبيت هنا الليلة، وبكرا الصبح نكمل، ما باقي على مكة كثير.

Twitter: @ketab_n

يندفق ضوء القمر على وجه أمي، ولأول مرة أرى بسمتها مشوبة بباقي دمع وحزن وجه مكلوم، وبقايا حكاية لم تروها لي :

(...كانوا يعيشون مع بعضهم، يجمعهم الحب الكبير .في الضحى بدأ الأطفال لعبهم، وهم يغنون دون انقطاع : " ماما أعطيني ماء، بابا أعطيني شربيت ". وبعد الظهر كانوا يغنون الأغنية نفسها، وهم يعتصرون القصب بين أصابعهم، وجرى بينهم وبين الأرض كلام حلو، وجعلوا يضربون الأرض بأيديهم وأقدامهم، ثم أصابهم التعب، فرقدوا يقيلون، واستيقظوا فجأة في عجلة ورعب إذ شاهدوا موجة ماء قادمة تهدر، وانقضت على الأطفال، فقزوا على أقدامهم وبدءوا يصيحون ، ويضربون أفواههم بأيديهم وهم يقولون : " بابا، سنموت، سنموت ". وجرى أسرعهم حركة، الذين كانوا خارج الماء، والأكبر اجساماً، جروا مبتعدين قدر ما استطاعوا دون أن يعرفوا الى أين يذهبون. وهلك الآخرون في اعماق الماء. وعندما خرج الكبار الذين تخلفوا في القرية ليروا ماذا حدث للأطفال، لم يجدوا غير الماء الذي غمر جزءاً من قريتهم. غمر الماء البيوت والأشجار والناس والخيل والطليان والأبقار والدجاج، وكل شئ، ولم يبق من القرية شئ، فلم ينج غير أولئك الذين فروا، وأولئك الذين كانوا في الغابة. ولما رجع القرويون الذين دخلوا الغابة الى بيوتهم لم يجدوا شيئاً آخر غير المياه، وقد انتشرت في كل مكان، فلم يعرفوا الى أين يذهبون، وحبستهم المياه التي ابتلعت أطفالهم وأصدقاءهم وممتلكاتهم، فكان ذلك هو سبب الدموع. ورحلوا مباشرة، وذهبوا الى الجنوب، فوصلوا في النهاية الى الأرياف ، وبقي الماء الى الأبد).

Twitter: @ketab_n

أتأمل وجهها وقد كفت عن الحكي، عن ذكر أبي.. كيف سافر حديث السن، واتصلت أسفاره، ودام تغربه، وولعه بصيد التماسيح على ضفة النهر التي كانت مساكنهم تبنى في أطرافه، وتعلمه العربية، وحفظه القرآن، وعشقه التاريخ، وإصراره على الدرس في حرم مكة، حتى عد فقيهاً في قريته. وأعلق :

- ماما وجهك حلو.

تزداد ابتسامتها اتساعاً، وتضمني، تلم طفولتي بين ذراعيها، وأحسها تغالب البكاء. فأحجز وجهها بين كفي الندبتين ، لأسألها وأنا افضح دموعها :

- ماما فين نبغى نروح ؟

تحرجها حشرجتها فتلوذ بالصمت.

حين تمضي القافلة وأنا أعيد مرات، ومرات حلمي لأمي، نسمع من يقول:

- الحج هذي السنة أمان. الشريف اتفق مع عشائر تحمي القوافل من القطاع.

تجفل أمي، وتهم بالسؤال، ولكن رداءة عربيتها تردها وتخنق أسئلتها. فتتأملني وفي عينيها بشارات بعودة أبي.

تفهم أمي العربية جيداً، ولكنها لا تتحدثها بطلاقة، لذلك غالباً ما تؤثر الصمت.

عندما شارفنا على مكة. كانت توقظني، وفي يديها حليب، وقطعة خبز، وحبات من التمر تزيل عنها الغبار. رفضتُ الأكل مكتفية بشرب الحليب. ابتسمتْ بصفاءٍ وإيمانٍ حتى بدا العِرق الشخين في رقبتها،

Twitter: @ketab_n

وحرك مسفعها، فبان قرطاها. قالت وهي تناولني حبة تمر : اسمعي حبيبة: **(كان هناك رجل، ألجبت له زوجته ابناً، فسماه شعيبو، ولكنه كان صبياً عنيداً، ملاتكته حارة. كان يرفض احياناً أكل طعامه، وإذا اشترت له أمه ملابس جديدة يرفض أن يلبسها، ويقول انها قمامة. وقال في أحد الأيام : " اذهبي واشتر لي زمزمية وقبعة، لأنني أريد أن ترك البيت والرحيل الى الأبد ". اشترت له أمه زمزمية وقبعة غالية جداً، وعندما أعطتهما له، رماهما، وقال أنهما لا ينفعان. زعلت أمه وقالت له " روح محل ما تبغى ". ترك البيت وصار يتجول في الغابات، وفي يوم بينما كان يسير في السهول، نظر، وشاف دبانة على راس الجبل المغطى بالتلج، وجنبها رجل، ماسك خشمه. وعندما وصل اليه.سأله شعيبو : ليش تسد خشمك بيدك ؟**

فأجاب الرجل : إذا فتحته تهب ريح قوية، تطيح الأشجار) .

* * *

أناخت الجمال في التنعيم. ورأيت أمي تفك حزاماً تحزمت به، وأخرجتْ شيئاً نقدته دليل القافلة. وأخذ من كانوا معنا يلبون :" لبيك اللهم لبيك "، في جماعية هادرة، أخافتني لأول وهلة. كل ما لم نتعوده يخيف بداية. ثم استعذبت هذا الهتاف، ورحت أشاركهم وأهز أمي، فانطلقت ضحكتها التي ظننتها ماتت منذ شهر. غير أنها كانت مكسوة بألم خفي. انخرطنا كلنا في التلبية، والوقت قريب من عصر، والشمس أخذت تبتعد من روؤسنا، ورأيت أمي تجول ببصرها، كأنما تبحث عن وجه تعرفه، تلك الوجوه التي نشتاق اليها عندما يتفاقم ألمنا. بحثت بقوة ويقين. لكن لم يعرفها أحد.

Twitter: @ketab_n

كان أعراب مكة أكثر أناقة من أعراب المدينة، جلافة قل، روؤسهم معممة، وأواسطهم محزمة بجلود لها مخابئ. تسابقوا علينا بجمالهم صائحين : (الحرم.. الحرم.. بيت.. خيمة.. كروة).

وأمي تمضي وسط الجموع. تجرني بعد أن كلت من حملي، تتفرس في كل الوجوه، علها تجد وجهاً تعرفه، أو تؤمن به على الأقل. لكثرة ما حدقت في الوجوه، صارت تملك قدرة على قراءتها. عشرت على شابٍ لونه يشابه لوننا، ودار بينهما حديث، ثم أخذ يمد إصبعه طويلا لنواحٍ لا يدركها البصر، وأنصرف بلا اهتمام.

سحبتني أمي وأقتعدت ربوة رملية ثم داعبتني :

- ميمونة.. دحين نروح الحرم.

- مكة فيها حرم ماما!.

- ايوه ميمونة.. بس لازم نمشي عشان فلوس ما فيه.

- .....

فكرت : أأزحف أم ستحملني ؟

أتحملني أم تحمل همها ؟

والى متى أظل أزحف ؟

لم تطل حيرتي. حملتني، ومشينا، فجلسنا، فمشينا، فتعبنا، بكينا. وألمس اصراراً من أمي على الوصول، رغم قطع الليل التي أخذت تصبغ مشينا. لم يمش معنا الا نفر قليل. كل مكتف بفرحه، وحزنه وغموضه. لا توجد وسيلة تخاطب بيننا وبينهم، عدا فترات التلبية المتقطعة التي أخذ التعب يقللها، حتى تلاشت تماماً.

في حين كانت الدواب، والكلاب، بدأت عملها الليلي. وكان ثمة

Twitter: @ketab_n

رجل هندي، ضخم الجثة، يحمل عصا يتوكأ عليها، وينهر بها الكلاب، والقطط التي بدت لي سمينة، والظلام البهيم جاثم على المدينة.

بعد مسافة هي أبعد من المنتصف، سقطتُ متعبة، بعد أن زحفتُ كثيراً وانتحبت :

- ماما.

فعادت إلي وكنت قد تخلفت، تستحثني على النهوض. وأنهضتني. فقلت باكية :

- ماما.. اشّو.

انتحت بي جانباً، وقالت لي : هيا.

وما أن هممت بالتبول، حتى صرختْ كلاب شرسة، فصرختُ فزعة، وتبعتني أمي بصراخ تستوقف القافلة، ولم يسمعها أحد، وحالت شدة الظلام دون رؤيتنا. فكت أمي حزامها الجلدي، أخذت تهش الكلاب اللذين تجمعوا متكاثرين حولي كفريسة. ارتد بولي وتجمد.. أخذت أصرخ فقط. بعض الكلاب اقتربت مني، وراحت تنهش في مؤخرتي العارية، وأمي منهكة متعبة لا تدري ما تفعل.

وسمعتها تهتف : الله اكبر.. الله أكبر.

واختلطتُ بالكلاب، ولم أعد أتبينها، تسربت حرارة الحياة، والخوف فنفرت من شللي. تبددت نبؤة الزنكلية، ووجدتني أركض دونما هدى على قدمين تخلصتا من العثار. شاكتني شوكة..صرخت، لكنها صرخة ضاعت وسط نباح الكلاب المسعورة. قفزت ألماً، ارتطمتُ بجسم لين. حضنته :

- ماما..

Twitter: @ketab_n

لعقني الكلب بلسان شديد الرطوبة.

سألت بكلمات باكية :

- ماما انت من فين جبت موية ؟!

لم أسمع جواباً.

أردت أن أمسح وجه أمي. فمددت يدي، فإذا بالكلب يقضم ساعدي، فندت مني صرخة ألغت نباح الكلاب، ليتضح صوت أمي رغماً عن الظلام.. هائجة.. منتحبة :

- ميمونة.. حبيبة.

وبقلب الأم، ألفتني مضرجة بدمائي، حملتني عارية.. باكية، وأخذت تعدو بي غير منتبهة أن قدمي انفردت.

ركضتْ بقوة مستعيدة أيام طفولتها في الأدغال.

حتى لحقنا القافلة، وتجاوزناها، ولم نقف الا أمام مبنى ضخم، سأعرف فيما بعد، أن اسمه " القشلة ".

منظر أمي، وهي راكضة بي، والدماء تنزف مني، لفت انتباه من كان في القشلة من الجندرمة. فاستوقفوا أمي، وحالت عربيتها الرديئة دون تفهمها، غير أن دمائي كانت لغة، ويبدو أنهم ألفوا مثل هذا المشهد.. يبدو أنهم يجيدون لغة الدم كثيراً.

أسعفوني، ثم أسلموني لأمي، وسقوني ماءً، وأشاروا لنا الى طريق الحرم.

كنت لا أقوى على المشي، وملابس أمي ملطخة بالدم الطفل، وبقشتها تركتها للكلاب بعد أن أخفقت في مقاومتهم. لم يعد لها من الدنيا، سواي بقميصٍ بلا سروال كانت الكلاب قد مزقته. وقميصها وشرشف تستتر به.

Twitter: @ketab_n

وعند باب الحرم منعونا من الدخول لمنظرنا الرث. عادت أمي تتمايل، حتى طرحتها دوخة، نتيجة ما أختزن رأسها من قطرات شمس طيلة نهارٍ ناري.

وقف على رأسها، ناس مكة،. وللمرة الثانية أرى الماء يرش عليها. ولكنها لم تفق هذه المرة. انتزع أحد الواقفين سكيناً. وشهق صوت :

- القرينة، عليك بالجاوية.

كانت سكيناً، تبرق حدة، وفي نصلها اشتهاء. دار الرجل حول أمي ثلاث دورات، قابضاً بقوة على السكين، يهمهم :

- عنز ياجربة، كلها الذيب.

وفجأة، هبط على ركبتيه غارساً السكين خلف رأس أمي، وتركها. رأيت السكين ترتعش مهتزة لوقت قارب غمضة عين، ثم ترنحت السكين وسقطتْ، كأنما اغتالت كائناً خفياً، لم يره إلا حامل السكين. ونهضت أمي، كأن لم يصبها شئ. وكان العشاء قد انقضى منذ ساعة. وأخذت مكة تلج في مناماتها.

سوق مقابل للحرم يعج بوجوه وسحنات متنوعة، حانات محدودة تتهيأ للإقفال . اقتعدت أمي اطراف السوق، تمسح جراحها الصغيرة، وحين تبصر جرحي توغل في البكاء.

يمر الحجاج من حولنا، فيصعب التخاطب معنا.

يشفق علينا رجل له سحنتنا، ويسأل أمي بعطف :

- حجة ايشبك ؟

ترد عليه أمي بالبكاء.

وأنا شبه غائمة، أسمع. آلام العضة تعذبني، ومن فمي يسيل

Twitter: @ketab_n

لعاب، وأمي تستر عورتي بشرشفها فتنكشف هي، ثم تبصر أوراقاً بالية ملقاة في السوق، فتصنع لي منها ستراً. وبعد جهد يفهم الرجل المالئ اسمه وروحه بنا، أننا قدمنا للتو من المدينة، وأننا بلا مأوى، وأن وجوهاً كثيرة ضاعت منا، ويستوعب تعبنا، وعدم قدرة أمي على تفصيل الحكاية أكثر مما قالت بكل جزء من جسدها.

فيخبر أمي أنه ممتد في سلالات الغابة التي استطالت قديماً نزوحاً الى الحرم وفقدت حريتها فضاع منبتها. ولكنه لا يعدم معرفة بالأحرار من منابته، يسكنون في أكواخ بأسفل مكة، وأحياناً تلمهم أعشاش في أعلي الجبال، لكنهم لا يخالطون الناس كثيراً. وكثير من أطفالهم خطفوا، ولم يروهم ثانية.

كان شهماً. رق لحالنا، وكادت أن تطفر دمعة من عينيه المحمرتين، أو أنها فرت وسترها ظلام الليل الذي أخذ يتكاثف، وكان الضوء الفقير المتسلل من مصابيح بئيسة في الحرم أضعف من أن يفضحه.

مضى وعاد بعد فترة. كانت أمي قد استسلمت لإغفاءة حذرة. وأنا كنت أتألم، وأقذف من فمي جوعاً، وظمأ، وحنيناً لأبي، ونظرتي زائغة.

قال لأمي، وهو يداري ارتباكاً غامضاً :

- هنا مستشفى، تعالي نشوف للبنت دكتور.

نهضت أمي، وحملني الرجل.

في المستشفى رأوا أن (من) عضني كان مسعوراً، ولابد من مبيت في المستشفى، فتوفر لنا الملجأ.

غادرنا الرجل الشهم مع وعدٍ منه بمعاودتنا نهاراً للبحث عن شركاء في الجذور.

Twitter: @ketab_n

عاملة تركية في المستشفى، رقت لحالنا. أخذتْ أمي للحمام، وأحضرتْ لها " كرتة " مناسبة. أما أنا فجردوني من باقي ملابسي، وأبقوني عارية، بعد أن راعهم عمق الجراح التي خلفها فم الكلب، وظلوا طوال الليل يضمدونني، وأنا أرهقهم بإسهال، وبكاء، حتى شعرتْ أمي بالحرج، ثم انحنت على رأس التركية وأفهمتها أننا لا نملك نقوداً.

فضحكت التركية، وطمأنتها بأن العلاج مجاني، يتكفل به ميسورون من جهات المسلمين كافة. يوقفون بيوتاً ومشافي لفقراء الحرم.

أشرقت مكة بنور ربها. وضجت شوارعها، وأزقتها بسعي الناس. وأنا نائمة قريرة العين. توقف اسهالي، ونزف دمي.

وعندما فتحت عيني. كان رجل البارحة الطيب، واقفاً، ومعه امرأة تختلف عنه في اللون، تتفرس في أمي، وأكدت آسفة أنها لا تعرفها.

الرجل أحضر معه كعكاً، وهريسة، وحليباً، ورماناً، وحلوى، ولباساً لي. ولما أبصر استقرار حالة أمي راح يسألها. وما أن فتحت فمها لتخبره بأمر أبي.. حتى بدا مستبشراً، مخبراً اياها أنه سمع عن هذه المجموعة من التكارنة التي ذهبت للقدس مشياً على الأقدام برفقة حجاج من بلدان أخرى، وأن الجوع، والحرب، والخصومات حاصرتهم. عاد بعضهم، وبعضهم استقر هناك، وبعضهم أكلته الطريق، أو افترسته عصابات الأعراب، ولكن يقين خبرهم عند السيد السقاف في المدينة.

بينما كانت أمي قد فرحت في البداية، إلا أنها تبرمت، وصاحت :

- عيسى مات ؟

هدأها الرجل :

- يا حجة .. أنا ما حفظت أسماء، شوية معارف في المدينة، يجونا بالأخبار. بس خلي أملك في الله كبير.

Twitter: @ketab_n

ولما سألته عن عمي، وأخبرته عن قصة اختفائه، وورود اخبارية تفيد بوجوده في مكة. تمعر وجهه وضرب كفاً بكف " القصة تعيد تفاصيلها ". أطرق قليلاً، ولم يجب.

ألحت عليه بالسؤال، في اللحظة التي دخل فيها الطبيب. وأنا فرحة مرتين.. ثوبي الجديد، وانتصاب قدمي. غادر الطبيب. وأمي تسأل والدنيا مسودة أمامها :

- أين سنأوي للبحث عن عمر.

- أنا ماني ناقصة حجات عندي في البيت.

هكذا ردت زوجته، التي أعرف بعد أزمنة طويلة أنها من الأشراف!.

دارى الرجل ورطته.. ارتبك قليلاً وقال حائراً :

- دحين انت خليك في المستشفى.. انت قلتِ اسم رحيمك ايش ؟

أخذ الاسم ووعد بالبحث عنه. سحب زوجته التي استمرت تنظر الى أمي بقرف، ومضيا. راحت أمي تنعي زوجها، وأنا فرحة بقميصي الذي لم ارتد مثله من قبل.

* * *

كانت أمي تتركني في المستشفى صباحاً، وتخرج لست ادري إلى أين. وذات صباح وقد التأمت جروحي إلى حد كبير، ولم يتراخ شوق أمي لأبي. خرجنا، وبيد أمي ورقة لمحمد أغا بابا ظغلي من المستشفى. استلم الورقة لتؤوينا التكية المصرية التي انتشلتنا من الوحشة مثلما تقتلع الريح نبتة ذاوية. وكلما لمحت أمي شخصاً من بعيد فيه ملامح عمي خرت بكاءً. وعندما يقترب، تتكلم معه قليلاً، وصوتها ذائب في نشيج، كلماتها تجهش، وأنا أرقبها بعينين تبرقان أسئلة، ورأفة، وحيرة،

Twitter: @ketab_n

وأناملي الغضة، تلتصق بكفها كأنها أدمتها. مع النسمات القليلات التي كان يوزعها فجر مكة، قبل أن يتفتت الى سموم حارق يخترق المسامات. نقف في أعلي الشبيكة، تحتنا مقبرة قالوا عنها أنها للشهداء. لم يحددوا أي شهداء، ولم تهتم أمي لمعرفتهم. يعلونا الجبل الذي سكنه عمر. عندما وصفوه لأمي حسبته عمي، ولكنه ما كان إلا عمر الفاروق. جبل بيوته راقية، لا يسكنها إلا أغنياء الحجاج. تصعده أمي، وتتركني عند شوام في دكاكين يبيعون فيها الحرير. تهبط من الجبل بلا نتيجة. تتجه للشامية حيث تنيخ الجمال، على مقربة من باب العمرة. ثم تسلك طريقاً للمسعى، فتمتلئ أذني بأصوات خليط من الباعة. مراكشي يبيع جلود الماعز المصبوغة بالألوان، وأتراك يبيعون الكهرمان، وأقمشة فيها أنهار وأشجار ومياه جافة، الى جوار زرابي حريرية. وفارسي تتهدل من جسمه أقمشة كشمير ومناديلها، بينما يقف الأفغان فاردين شالات مطرزة. وبين هؤلاء وسط ازدحام الناس، تلمع أصوات الدراويش والشحاذين، و تبرز التحف والأسلحة الفخمة والأقمشة في أيدي اليمنيين والهنود. بين كل هؤلاء، تواصل أمي فحص كل الوجوه، والسؤال قرينها، وأنا صرت أمشي، أبقى وراءها بمسافة، ادقق في حصير رقيق يتدلى من مشربيات مصنوعة من خشب ملون ومنقوش ، تتزين بها النوافذ التي تنفتح على شوارع جرداء، خالية من الشجر.ثم نسمع طلقات مدفع تندفع أمي اثر صوته وقد أصابها الهلع، وهي تحملني وتهرول بي نازلة صوب الشيخ محمود في جرول حيث بقعة باركتها خطوات ولي من الدراويش الذين يعتقد فيهم الناس وقت أن استشكل عليهم النور القديم. ترى جموع الناس واقفة تحتفل

Twitter: @ketab_n

بالمحمل الشامي. تبتهج مع الناس قليلاً ثم تغادر أفراحهم، باحثة عن فرحها الخاص. وتمشي.

طوال النهار كنا نمشي، في بازار طويل تحوطه دكاكين تبيع كل شئ. ومطاعم تقدم اللحم المقلقل. كانت كل الشوارع تعج بالغبار إذا انقطع المطر، و بالوحل إن هطل. سويقة وحدها كانت شوارعها مرشوشة بالماء، ونظيفة، تنبعث منها رائحة العطور، المندلعة من البيوت التي يسكنها أغنياء الهنود. في سويقة كنا نقضي أكثر الوقت، بعدما قالوا لأمي أن الناس يباعون فيها، نساءً ورجالاً.

وعندما يداهمنا الليل، نهرع للتكية، أواصل معها البكاء بصوت خفيض حتى يغلبنا النوم، وأنا في حضنها، أنهنه، ثم أبول عليها، فتستيقظ، وتخجل من ايقاظ أحد في التكية. تخلع عني ملابسي. تجففني. ثم تسكب عليّ قطرات من حنان مضطرب، حتى أصحو صباحاً مبللة تماماً بعطفها، وأبتسم.

في يوم من أيام جولاتنا في أزقة مكة، وحاراتها التي تختلف بتنوع ساكنيها. وتعدد سحناتهم، ولكنها تبدو متآلفة، متجانسة، وان في الظاهر فقط. ولكن هناك ما يجمعهم، كما الحقل يتعدد غرسه، لكن كله ينشد أخضر. اشتاقت أمي للحرم. رأت نساء كثيرات، يصطحبن أطفالهن ويدخلن الحرم وقت أن عادت ذكرى طفح الدم الحسيني .

تركتني عند امرأة كبيرة كانت تفترش الحصوة، وذهبت تطوف. نادتني المرأة :

- تعالي يا قمرية.

وناولتني حمصاً وزبيباً. وقالت بصفاء :

Twitter: @ketab_n

- حلاوة عاشورية يا قمرية.

ولكني رفضت الأكل.

عندما عادت أمي، بادرتها المرأة وهي تسحب دورقاً من زمزم :

- القمرية هادي مدلعة، ومُمرَّعة كمان.

خجلت أمي، وفرصعت عينيها فيّ. وبعد حديث طويل دار بينهما. سمعت المرأة تقول بحماس لفت نظري :

- وي يا أختي، وأنت اشلك واشل الهجولة !.

صمتت برهة ثم أردفت :

- دحين أروح لأبو البزورة، وهو يدلك، أعرف رجّالي يحبهم.

قال مرداد لزوجته: (أعشاش التكارنة، في جبل الفلق، وأغلبها في نواحي المسفلة.. ناس سذج، خالين من عيوب الأوباش، لا يعرفون الفضول، ولا يدخلون فيما لا يعنيهم. سبق لي النوم عندهم في عشة من العشش. طيبون، لا يضمرون حقداً لاحد، ولا يطمعون في مال أحد، ولا يعرفون السرقة، ولا الفواحش، ومعظمهم مهاجرون للعبادة وطلب الرزق، وقانعون باليسير. الرجل منهم إذا جمع بضعة قروش في اليوم ذهب الى كوخه، ومكث به حتى الصباح. ونساؤهم يسكن بهذه الأعشاش، يطحن القمح الخاص بالشربة، وبعض الأعشاب والحناء والأبازير).

عندما رجعت زوجة مرداد لأمي، قالت لها باشة :

- ترى الأوصاف يقول أبو العيال، تنطبق على المسك.

ثم أوصتها وهي تغادر بعد صلاة العشاء. بعد أن أحكمت جامة رمادية على جسدها البض:

Twitter: @ketab_n

- خلّي بالكْ وَسِيْعْ، لحد ما نلقى خبر. هيا باتي بها.

مـرت أيام طويلة، حـتى عـاد الرجل الطيب الذي لم أره منذ أن غادرنا المستشفى، يتهلل وجهه انساً. انزوى بأمي في طرف التكية، وسرعان ما لبثت تصيح، ولكن الصياح هذه المرة اتخذ ايقاعاً مغايراً لكل صياحها الذي نَموت عليه.

كانت دمعاتها تهطل مختلطة ببريق اسنانها العاجية، ووجيب قلبها يكاد يخرق الأرض، فشممت رائحة أبي، ومضيت أتعلق بكتف أمي.

أزمعت أمي على العودة للمدينة، رغم الأنباء التي سرت بأن المخاطر حفت بطريقها، والجياع يتربصون بقوافل الحجيج. فان كنا قد نجونا في مجيئنا، فليس ما يضمن نجاتنا هذه المرة.

لم ترتعد أمي من تلك الأنباء، فالأشواق تغالب الخوف.. أشواق جعلتها ترق على مدى أعوام. تجبرها على اللحاق، مهما علت، وتضخمت المهلكات.

على نفس التراب ثانية. آنستنا وجوه مختلفة.

Twitter: @ketab_n

٨ . وقتٌ يُضوِّعهُ مسك

أنا عـمـر المسك. اصطاد وني في لحظة ضـعف مـريرة، وسلبـوني حريتي، وحين استرددتها لوقت قصير، عادوا فسلبوها مني. فامتلأت أوقاتي بهدف محدد، سعيت ما وسعتني الحيلة لتحقيقه. أن أسترد اسمي، وإنسانيتي من هؤلاء الذين أوغلوا في الذئبية.

أعادني الباشا لاملاكه، وقرر حبسي في دارة كبيـرة لا أغادرها أبداً. ووصفني بـ (طيب و رويان، بس رأسه ناشفة).

* * *

عزلة مقيتة بقي فيها، بين النساء والغلمان. محروم من الخروج إلا بمعية الباشا. ونساء الدار يناديه بـ (الشرّاد).

كان عليه أن ينتظر وقتاً، ليفكر في استرداد ما سُلب. ذاع خبره في المدينة. صار الكل يحذِّر مملوكيه من مغبة التفكير فيما يفعله عمر، الذي سموه أمان.

وعمر يتعلم كيف يتقن فراراً لاأوبة بعده. داخَله إيمان عميق، أن ما جرى له عقاب من السماء، على تجاهله وصية أخيه، فازداد التصاقاً برب السماء. صار يملأ البيت والوقت والأمل بالذكر والنوافل، وتلاوة

Twitter: @ketab_n

القرآن حتى اطمأنت له النساء، وأوكلن له رعاية الأطفال. يخرج بهم في أصائل أشبعتها رطوبة البحر دبقاً ووحشة، في أماكن لا تتجاوز فناءات البيوت، والعيون تتعقبه. يقرئهم القرآن، ويعلمهم شيئاً من فنون رمي الرمح، وإطلاق السهام، وأبجديات العراك. تعلق به الغلمان، مثلما إزداد تعلقه باغتنام أقرب فرصة مواتية للرحيل، بعيداً عن هذا الأسر الجائر.

* * *

أرى زين. أحدق فيها، فأبكي ميمونة، ويرتعش داخلي لتذكر أبيها. حنو النسوة عليّ يكبر، ليضللني قليلاً عن واقعي. يطلبن مني تعليم الصغار كيف كنت أحوك الفخاخ للفرائس، من عصافير، وقماسيح، وأيائل صغيرة. يجلبون قططاً وجراءً مهترئة، يطلقونها في الفناء، يطرد خلفها الأولاد بسوقٍ لا تقل عنها اهتراءً، وأنا أرشدهم. لا أفارقهم إلا أوقات الصلاة، أو في اللحظات التي يطلبون مني فيها نقل الأشياء وحمل المشتروات للداخل. وأوقات التنظيف صرت أشرف على الخدم، والجاريات. للباشا بيوت عديدة، أراه مرة كل أسبوع وأحياناً مرتين في هذا البيت، وغالباً ما يحضر من حيث لا تتنظر أو تتوقع. وأخف الأيام بؤساً، تلك التي أقضيها معه وهو يلهو ويفسق في صيف الطائف، ويؤذي خضرتها، يبكي ريمها ليضحك هو ورهطه من المهرجين والمرتزقة . عندما يأتي،أفتعل أي شئ لأنصرف، وإن أجبرت على البقاء، لا أقوى، أو لا أطيق النظر اليه، لأن نفسي تغلي حينها، يفور الأحمر في بحيرات قلبي، وتكبر رغبتي في فعل شئ. أتماسك حتى

Twitter: @ketab_n

ينصرف. هو أيضاً، ينظر إلي بغلٍ ممزوج بسوء ظن. لم تفلح كل عبارات الثناء والإعجاب التي تطلقها علي النسوة والجاريات، في تبديد شكوكه إزائي، ونفي الجفوة.

مرة واحدة فقط، ابتسم لي، في عيد الفطر حين منعني من حضور صلاة المشهد، فاغرورقت عيناي بالدمع، فربت على كتفي وقال مبتسما:

- من العايدين.

كانت ابتسامته قاحلة، اختصرت ما أنا فيه من بؤس وشقاء.

سيدة البيت الذي كنت فيه، كانت أصغر نسائه. وظهر لي من همس تناقلته نمائم الجاريات، أنها غصبت على الزواج منه. كانت تتغير حالما يحل في البيت، تتحول الى عبوس قمطرير. وأدهش لضحكاتها تتناثر مجلجلة في أنحاء البيت عندما يغيب. لم تكن بيضاء، ولا سوداء. لونها غريب، فيه صفرة الشمس، وخضرة البحر المرتمي على مقربة من البيت. وعرفت دون أن أريد، أن أباها من الأعيان، وأمها جارية شركسية، وأن الباشا نالها في صفقة أغنام وحبوب، اثر ضائقة مرت بأبيها. وعرفت أيضاً، أنها كانت على علاقة غرامية بجوهر التاجر. الذي كان من أشهر من يبيع الرقيق داخل البيوت. أدرك أن البيع في الأسواق العامة ينقص القيمة، ولا يتيح التقليب الذي أحسست بكرامتي تتناثر تحت قدمي، وهو يقع عليّ. قيل لي أن جوهر هذا هو من باع أم لبابة التي تسرّى بها أحد الأعيان فكانت لبابة.

يزداد عطف لبابة عليّ لحد الريبة عندي، وعند الجاريات. تدعوني لمخدعها. أدخل عليها زين، أو آخذها منها، وتلمح لي بالبقاء:

Twitter: @ketab_n

- ترى أبو زين اليوم معزوم في ينبع، بكرا يجي، خلي بالك.

وتتكلم عيناها. غير أني أنسحب متألماً. ضعفت مرة، فدفعت حريتي ثمناً. ترى إن ضعفت ثانية لربما يكون الثمن حياتي، وان كان الموت في مرات كثيرة يحلو لي، فالعبودية قاسية على من ولد حراً.

أنقطع عن عدّ الأيام التي تمر نيئة، تحمل بين طياتها ضآلتي، وأنا أحمل صناديق الجزر الحلو والرمان علي ظهري في الشفا، ثم نهبط الطائف، وأجمع صناديق مثلها، معبأة بالحماط والمشمش والتوت البري، ووحدي أدخل بها الدار. أشرف على تخزينها، وتجفيفها. أما العنب فيعصره الباشا في براميل كبيرة، يقفل عليها في سرداب تحت الأرض، لا يعرف بابه إلا اثنان. يأتي مرة في الشهر، في ظلام الليل، هو ورهط من الكباريه، يفرغون منها كميات، ويرحلون، بعد أن يكون الباشا قد اطمأن لكوني كتوماً، لا أبوح بالسر حتى لنفسي، التي أذهب معها في سفر طويل مترع بالقهر والحسرات.

لم تفلح الأيام بقتامتها على اقتلاع الإحساس من داخلي، بأنني لست هذا. فقوة الأيام إما تميت الإحساس، أو تعمقه لتخلق داخلك انساناً لا يستسلم. ساعات قليلة من الشعور بإنسانيتي كانت تمر عليّ، وقت أن يتركوني وحدي في الشفا، أشم نسيماً يمر عليّ أليفاً، وأنا الى جانب الجزر والبرشومي، أبصرهم ينحدرون الى امكنة لاتطالها عيناي، مصطحبين قناني العنب، والتوت المعصور.

حدث مرة أن فلتوا، حتى داهمني ليل بارد، تجمع كراهبات مسنات كن يطردن خلفنا في الغابة. عباءة ليل البرد فضفاضة، ورغم ذلك لم

Twitter: @ketab_n

تسع كآبتي. لم أعد أبصر فيه سوى حزني يلمع كعيني طفل، حتى خلته سيضوي الوقت لكثافته. ولم يكن متاحاً أن أنصت لأصوات تعوي في العتمة. لمحت عينين تومضان. تحركت بخفة وخفية، فرأيت ذئباً تشير ملامح وجهه الى انتهائه للتو من وليمة. اختبأت خلف صخرة لا تظهرني، ويدي على حربة أحملها معي دائماً في مثل هذه الخرجات، اضافة الى بلطة يمسكها وسطي، مكسوة بجلد ثورٍ منا . أقعي الذئب، وبدا كأنه " سرحان " يتجشأ، ويصدر من حلقه زمجرات صغيرة لا تخيفني، بقدر ما كانت تعبر عن شبق.

في اللحظة التي كنت أتهيأ فيها لمباغتته في حال رؤيته لي، لأنه من المؤكد أنه شمني، كان يعبر فوق قدمي شئ أملس وناعم. عرفت أنها حية مرت بسلام. بإمكاني أن أناديه. أملك صوتاً لذلك، لكني لا أفعل. قد يفوتني امتلاء هذه اللحظة، وهي توشك أن تتكشف. وأنا أرغب كثيراً، مع نهايتي هنا، في أن أكون منفتحاً على كل ما يظل أميناً لي. أخذ يهدأ، أو هكذا ظننت، ولم يغلق عينيه. لدي علم بأن الذئب لا يغلق عينيه حين ينام. أنا أيضاً كنت أنام مفتوح العينين، ولكنني لست ذئباً. بالفعل كان قد هدأ. غيرت مكان الصخرة مع اقتراب الفجر. وسطعت أمامي الزنكلية (لاتنس ناب الذيب).

مر أبو طويلة ثانية، فعثرت قدمي بحجر ناتئ، فز الذئب ورآني بوضوح، وعندما يواجهك ذئب تفكر كثيراً في أن تكون ذئباً، تقليد أخترعه البشر، رغم أن الذئب لا يفكر مطلقاً أن يصير بشرا.

وجهي بكل ما يحمل من أسى، في وجهه بكل ما فيه من شبق.

Twitter: @ketab_n

أشهرت حربتي، وباغته قبل أن تشتعل ذئبيته، لأضرجه في دمائه، وأستاف حزني. انتزعت الناب، وألقيت به الى جانب حزم الجزر، أدخره ليوم يجمعني بالزنكلية.

جلست ملقياً رأسي المتعب بين يدي، متكئاً على صخرة مجردة من الأفاعي، متحفصاً غابة الشوك في الشفا. غابة أعادت اكتشافي لنفسي، وحجم ما ارتكبت من أخطاء، وما منحت الآخرين من ظن حسن، ومن دروب يمرون بها على ما بداخلي من سلام.

قلت : هل أتعلم من هذا الذئب الذي بدأت رائحة دمه تخالط نسائم زهر توتٍ بري، يزهو في المكان دونما خوف. هل أتعلم شيئاً !

السماء فوقي تريد أن تقول شيئا، وحبات البرشومي كأنها تحدق فيّ، بادلتها التحديق، وعندما بدأت قطرات الماء تلامس شوكها، أخذت تلمع ، صورة بهيجة نشرت داخلي قدرا من اللطف والانس، سميت البرشومي شجر الانس، رغم الشوك تحت رحمة الماء لان الشوك وانكسرت سطوته. كلنا نرق تحت الماء وتنطفئ حرقة الطين فينا.

وأمامي تتراءى ظلال ميمونة وأمها وعيسى. أسمع أصواتهم في منامي، فتملأني الكوابيس. كوابيس شاع ذكرها في كل البيت، حتى الباشا خاطبني يوماً، وأنا أدلك قدميه بالملح والكافور :

- انت تحارب وأنت نايم ؟

قالها بلهجة لم أميزها. أتعنيف هي أم استفسار. ثم أردف :

- شخيرك وصوتك واصل للبحر ياجخر.

وبدا يطلق القحط من شفتيه الساهرتين :

Twitter: @ketab_n

- الله يخليك، لا تفجع لي الجماعة، ولاّ تروح المينا تشيل بضاعة.

- ياريت.

قلتها بنشوة متلهفاً، دون أن أعي. لتعلو ضحكة صارخة كريهة، لأول مرة أسمعها من الباشا:

- تبغى الفلتة يا سربوت عشان تشرد تاني.

أرخيت رأسي، وغضبت بصمت وهدوء.

- لمن تحج البقرة على قرونها. والله ما تندر من هادا البيت، أمش انقلع من قدامي.

زادت كوابيسي حدة، مثلما بانت تلميحات لبابة، وتمادى إغراؤها. لذت بربي، وأنا أتلو (... وإلا تصرف عني كيدهن اصب إليهن وأكن من الجاهلين).

* * *

تشقق في صراع داخلي مرير، ما بين وطأة القيد، وطأة غرائزه، ووطأة الفرار من تلبية رغبات سيدته. " من أستعف يعفه الله. استعف يا عمر، هذا وقت سمائي تكفر فيه عن خطيئتك ". يكلم نفسه ضجراً، تعساً.

والتعاسة قد ترخي قوة التحمل، لكنها لا تفت في عضد الأمل، قدر ما تعطي الواثق قوة خفية لمقاومة مسبابتها، لدحرها، أو على الأقل تقليل فداحتها.. فادحة هي التعاسة. بذل الجهد في مجابهتها. يقلبها لتعاسة حقيقية. أنفق جهداً يفوق طاقة المكروب. ليكبح جماح النار في نفسه .

Twitter: @ketab_n

عصراً وهو يلاعب الصغار تعبر لبابة الفناء، بكامل زينتها، في عينها شغف، وأبخرة المصطكى وروائح المسك الهندي والعود، تمنح جواً خانقاً بالغواية. يشتمها وهي تخطو بدلال هائل، والجسد كأنه لعروس البحر التي ظل أهل جدة مئات السنين يحلمون باصطيادها. متبخترة تتمايل كأن نبعاً من الطيوب تبخر، وانهمر شذى، مالئاً فناء الدار أريجاً يطيح بالأئمة في مدارات الفسق. تمر بجواره، وتتعمد أن تُسمع احدى الجاريات :

- يا بنت سيدك اليوم بايت في الطائف مو ؟

وتلقي نظرة بطرف عينها. تفتعل محاولة لحمل زين من عبه، لتفح أنفاسها في وجهه. يعرق من كل مكان في بدنه، ويدرك أنها ربما خطوة الى الجحيم، وغواية لاقبل له بها. يستحضر يوسف.

- متى يدرك هؤلاء أن المهموم لاهٍ عن رغباته .

يفكر، ويأتي بحركة مقرفة من أنفه،يقذف بالعود، ويبصق ماء اسنانه، مكملاً حديث الذات :

- إن يروني عبداً. فأنا حر أسمو بنفسي.

ترتطم في ذهنه، وتتقاطع كل الأشياء.. وقتاً قضاه الى جوار الحجرة والروضة.. وصايا الأخ الجليل.. قيم.. محرمات.. حرمان.. امتهانات.. لذائذ.. خوف.. الباشا.. العفة.. الانتقام.. الفرار.. مناور.. ستر.. سكينة.. رأس الحسين.. ناب الذئب.. دنان العنب المعتق.. طعم التوت.. شوك البرشومي.. ركض الصفا والمروة.. سوق النخاسة.. الله بعدله وعقابه.. تصطدم الأشياء، وتلقي به في بقعة مؤلمة

Twitter: @ketab_n

من الاشتهاءات. يتصاعد بخر الرائحة الزكية. تجحظ عيناه، وعندما تتأجج رغبة رجلٍ مكبوت، يتيه فكره في وادٍ من الحمم والحمى، والشوق والتوق، والخوف. يُحَمُّ شيئه، فيتقرفص ويحسبل في سره. تغمره خيارات، وأسئلة :

- يجوز للسيد التسري بجواريه. فلم لا يجوز للسيدة أن تفعل مثله؟!

يلقي السؤال بالروع في جسده السخين، ليعرق، ويعاود احمرار عينيه. يمتلئ شدقاه بالزبد. ينفر، ويتعوذ من ابليس. ولبابة أنوثة فادحة، فتنة ينتصب نهداها مثل رمانتين للتو نضجتا، فأنبثق الألق يكسو جلدهما. تنغرس في الوجه عينان اقتلعتا من حقول القوقاز. عينان كان جوهر، يقف في باحة المزمار ويمد ناظريه لشرفة تتكسر شعاعاً، فيشيل الزومال: (مكحل بالطرف يرمش).

لتشيله معه الأصوات السائلة في النار : (عيون الظباء يا مشمش).

تهرول خلف طفلتها المنفلتة في الفناء، بقميصٍ يلتصق بجسدٍ فائضَ الدفء والإلف، يطلبُ مطراً يمنحه سكينة. وعمر لم يتوغل في الغابة كما يليق برجالها، الذين تربيهم الغابة على مقارعة التحرش.

ما برح يصادر رغبته المكبوتة، يسرِّب حراجة اللحظة، بعصر زين بين يديه. يتعالى بكاؤها، لتخطفها لبابة في اللحظة التي كان فيها صوت الباشا يكسر هدأة الأصيل.

يلج الفناء، ويفتر ثغره عن ابتسامة تضج بالشهوة لحظة أن علق :

- يا سلام، اش الريحة الحلوة هادي !

اندلعت حرائقه. انزلقت الرغبة المحاصرة، الخائفة، من مقيدٍ حر الى حرٍ مستبد. تقف لبابة حاملة زين. أظهرت أنها تلاعبها :

Twitter: @ketab_n

- "تاتا تاتا

حبة حبة

تاتا تا تا

شقح العتبة ".

لبدَ عمر. كمن أُلقي به في غمر نهر دافئ وحنون.

- تعالي نشقح العتبة.

قالها الباشا وهو يسحب لبابة، من يديها اللتين تاهتا في يديه المستبدتين. صعد بها للأعلى، وفي عينيه لواعج الحمأة. لاحقته نظرات عمر، وهو يسترجع ما رأى في عيني " سرحان " . وقف حروناً، تتسلل منه رغبة مطفأة :

- أنا بشر مثله.

نطق بها لجارية ضهياء، كانت ترصد المشهد بدقة، وترسل الصوت لصويحباتٍ لها، كن يرصدنه معها من السطح :

- مو كل مين شم الريحان يقدر يقطفه.

النسوة يرصدن لحظات الغواية بدأب يقارب الالتذاذ. كن يهرعن ركضاً بين الممرات، كل واحدة تنبه الأخرى، وتسري تعليقاتهن هامسة:

- شوفتي قعرها كيف مبلبل !.

ويضحكن معاً. ورفعن الصوت غناءً وسخرية من عمر.

استمرت ضحكاتهن تساقط بغنج وفجور، حتى أخرسهن ظهور الباشا في الخارجة، يرمح كخيل جموح، أفرغ صهيله في وعاء فاتر . كان شبه عارٍ، وهو يسلك طريق الحمام.

Twitter: @ketab_n

كان بإمكان عمر أن يرتوي، ويروي، لولا أن همه أكبر من شهوة ربما تكون حتفه. أي رجل غريب كان يبدو في أعين الجاريات. ربما كان استجاب لو كن هؤلاء الجاريات، المتطفلات، غائبات. ترك الصغار يتصايحون، وهو سادر لايبارح مخيلته، طيف ليمونة وأمها، طيف لعيسى، طيف لغابة طبع قدمه في وحلها وطميها الذي بقي شئ منه مخبوءً في شقوق قدميه.

غابة كان ينثر طفولته فوق حشائشها، ويجمعها على ضفة نهر يتمناه الآن، لينغمس فيه، علّ جسده يبترد، بعد أن يلقي بالشص جانباً الى جوار سلة عبأها بسمك نضر. بانت أمامه سنوات من العذابات، لا يعرف كيف الطريق لعبورها صوب حريته. حك شعر رأسه، وبقي صامتاً. يجد في صمته قدرة الاحتفاظ بالحلم. نادراً ما كان يتكلم. أكثر كلامه، تعبيرات بوجهه، بعينيه، بشفتيه. له شفتان صغيرتان بخلاف أشباهه. مر بظاهر كفه على فمه، وأخرج أراكه يستاك. هذا العود منحه بياضاً في فمه، كان واحداً من الأشياء التي تثير لبابة، وترغبها فيه. كانت أسعد لحظاتها، وقت رؤيته مبتسماً ؛ تبرز أسنانه الصغيرة المتراصة بإبداع متقن، وسط لونه الأدهم، فتبدو كفلق الصبح. دوماً تأمره :

- خليك مبتسم على طول، عشان زين لا تبكي.

وجاءت زين تحبو، باكية، خلف أبيها الذي حملها وناولها عمر.

- البنت تحبك يا عرص.

معجم الباشا اليومي ملئ بالسباب والبذاءة

ترك عمر حائراً، لم يجرؤ على سؤاله :

Twitter: @ketab_n

- أي بنت منهم ؟

مرت بجواره الجارية، وقد سمعت الباشا، حرضها خبثها على التعليق:

- ايوه، البنت تحبك موت !

وعلت ضحكتها مع صويحباتها، وهي تغمز بعينيها في خبثٍ فاضح. بينما لبابة تنصب قامتها في العلية، وتهتف مكتئبة :

- أمان .

- نعم يا ستي.

- إذا صليت المغرب لا تروح أبغاك.

وتنصرف. لتزداد ضحكات الجاريات ضراوة، ويزداد عمر غماً، وحيرة، وقهرا.

* * *

الصيف يحكم زمامه على جِدة. يخنقها كوحش هائج. يستوي الأسد. تندلع الرطوبة كشواظٍ (يلصق الثوب بالجسد). تتيه كل المفاتن. بالقرب من الحمام المجاور لمخدع الست، توجد بسطة تتخذها الجاريات استراحة لهن. عمر وحده من الرجال، يسمح له بارتيادها. ظهيرة الصيف القائظة تقوده اليها، خالعاً ثيابه. يرتاح شاخصاً ببصره في السقف، يستنشق ما رق من نسمات يسربها المنور، من نوافذ بحرٍ يقسو أغلب الوقت. الجاريات في المطبخ، والسيدة تواصل نومة ضحاها التي وزعت فيها مهام العمل. يطمئن عمر لهذا التوقيت، فيفك قيد جسده للهواء. يحرره من وحشته. يفتحه لعيون السماء، ويمد باطمئنان راسخ، قامة

Twitter: @ketab_n

مفتولة قدتها غابة الأبنوس. تباغته الست بظهورٍ لم يكن على البال. تقف مشدوهة. تفور داخلها كل ماراكمته الأيام من رغبات، وهي تتأمل هذا الأبنوس الدامي، الذي يتمنع عليها.

غافٍ في همه وتعبه. تقترب منه دون أدنى إحساس بها، أو رهبة منها. ولحظة يتنبه، يبصرها جاثية على ركبتيها، وعيناها تعجان بنارٍ جمعتْ شهوات نساء العالمين. حاصرته. انقلب على جنبه، ثم بطنه بحركة ذئبية علمته اياها تلك الغابة. أخذ يزحف كحية منهكة. امتلأ الدرب أمامه ظلاماً. ضوء وحيد، يتسلل من شق نافذة ساخنة، دفع به لإقتحام الحمام، وما أن هم بإغلاقه، حتى وجد لبابة تتحول إلى لبوة مهتاجة. ولكنه استأسد قبلها، فأحكم اغلاق الباب. ما برحت مكانها وهي تستعطفه :

- أمان، أندر يا أمان بسرعة.

- .....

- اندر يا سربوت، أصلك مانت وش نعمة.

- .....

يغمر المكان صمت رطب وحارق. صمت يصاحب الاهتياج. الصمت الوحيد الذي تسمعه الدنيا كلها، عدا اللذة وحدها. والمتألم يسمع صوت ألمه فقط. لا يسمعُ أحد معه إلا إذا غناه. وعمر لم يجد طقساً يوفر له الغناء.

صوتان في المكان. صوت الألم داخل الحمام، وصوت الرغبة خارجه. كلاهما صامت، وقد يعلو فيخرج على هيئة فضيحة، لن تطال سواه.

Twitter: @ketab_n

- انت عارف اش راح يصير لك إن ما خرجت يا ملعون .

لبوة أعماها الشبق، وحائر أضناه الشوق. ما هي المسافة بين الشبق والخوف، أناس لا يكتمل شبقهم إلا بالخوف، واناس ينحر شبقهم الخوف. لبابة صنف ينسيه الشبقُ، الخوفَ، والفوارق. فلا يكترث في مثل هذه اللحظة إلا بشهوته.

- يا مرندح ، أصلك منت رجَّال.

-.....

- لو كنت رجَّال، أندر ورِّيني طولك .

فرق هائل يفصل الرغبة عن الشهوة. للحيوان شهوة. وللإنسان رغبة، يسيطر عليها بعقله. الأنبياء والقديسون، وحدهم يجتازون هذا الجحيم. وعمر ليس نبياً، وما هو بالقديس. بشرٌ له رغباته. قد تكون له نزوات عابرة، صغيرة، في البيت، مع جارية، وربما مرة مع غلام، أو لربما مع الباشا نفسه الذي لايفتؤ يحك مؤخرته. كان عمر يصم اذنيه، وهو يسمع أحد الخدم يهمس للجواري: بعض الكباريه بهم داء لا يعالجه إلا ماء الرجال !

يتعالى صوت الست مع تعالي حيرته. يتوتر ماء الظهر. يتفصد العرق، ويسيل دبقاً بلا طعم . ولكنه إنسان منصرف الى همه، مسيطر على رغباته. ربما خوفاً، ربما عقلاً. ولكن لبابة تلبوأت ففقدت عقلها. تراكمت رغباتها حتى وصلت سدوم. بها غلمة انشق قماطها، في ظهيرة فادحة الرطوبة، مترعة حرارة تنحدر بالهم للأسفل.

- اندر يا زفت، أحسلك، نَدَرَتْ عينك من حقها.

Twitter: @ketab_n

اللبوة مصرة على افتراس صيدها. عشب اللذة يأخذها لرفرفة لا حدود لها. لامفر يا عمر من الاغتسال بهذا الماء الذي يغلي في تنور الست. يحرقك ماء النساء، تبتل برذاذه، وتصطفق الريح في جنبيك، على كتفيك رماد كأنه الرماد. والطقس يذبل على شفاهك، كما بهتت قبله الأغنية. أو أنه ينتن وتنجو بك الرائحة.

فكرَ وفكرْ، ثم قدرْ : نتنُ سيصرفها عنه. ربما يبعثر محنتها.

تسقط يده في فتحة مرحاضٍ شادَه حجرٌ، قدٌ من منقب البحر، يسكنه ملح يتأتى، من قرون وعولٍ، تغادر السفوح مكرهة. يغمض عينيه بكل ما احتشد جواه من يقين. يتفايض دمعاً مع أول كمية أخرجها من عفن الإنسان. يبدأ من الرقبة. نزولاً للسفح والعري المخفي.

صوت لبابة، أخذ في التحول من الهمس إلى الجهر. صدعت بما أملته عليها الشهوة. كانت مطمئنة إلى أن الجاريات يغادرن في هذه اللحظة، مالئاتٍ أيديهن. كل واحدة منهن تتيه بقفة لحمٍ، ومرق، وفاكهة، وعصيد، يفرقنه على بيوت الباشا.

- يا واد أندر، دحين ما فيه أحد.

-.....

أكمل دهن جسده العاري إلا من سرواله الذي اكتسب لون طينٍ محروق. انكفأ يسكب بحرقةٍ ماء عينيه. ويتقيأ. تقيأ حزناً أصفر، ثم وقف مكملاً مدن جسده، حتى انفضح جلده. ازدادت اللبوة إصراراً. وبدأ يزيح المزلاج.

انتشت لبابة لسماع صوت الباب. الأرض تسفرعن وجِدها، تسفح ما اختمرت من لوعات.

Twitter: @ketab_n

- ايوه، كدا الله يكملك بعقلك.

وما أن أطل، إلا ورائحة الغائط تملأ المكان، مختلطة بقيئه الصدئ. وقف أمامها قمراً يتكسر. هدرت سباباً ولعناتٍ، تجرح الكاشور الذي يضمهما.

- وع.. وع، يا معفن، يا مُقَطع، يا نتن، ياآكال الـ...

واندفعت تجري دون غلمة، وتصيح بامتداد البحر. امتلأ عمر هلعاً، وراح ينقلب على عقبيه. هو الآخر لا يعرف طريقاً يسلكها. ما أن هبط الفناء، حتى التم الناس، يتقدمهم الباشا. لمتهم الصرخة، والرائحة والنتن. وتحولت اللبوة الى امرأة العزيز. يصيح الباشا :

- ادبحوه ابن العايبة.

هطل القوم عليه، فعقدت الدهشة ألسنتهم.

استغرب الباشا امتناعهم عن المساس به. الرائحة أخذت تستوي، وتعلو. اقترب منه يشاركهم الدهشة.

أحاطهم وجومٌ، وصمتٌ بلا تخوم. البحر والشوراع والحانات.. أشرعة مراكب صغيرة متهالكة تدلت واجمة.. كل المدينة شالت أصواتها، وعمها الخرس، كأنه نُفخ في الصور . اقترب الباشا أكثر وبدد وجوم المدينة. قال بصوت واهٍ:

- يا واد انت مُدْنبِشْ ؟!

أي اجابة، أو أي كلام يمكن أن ينطق به عمر، وهو يرى المسافة بينه وبين حتفه، أقرب منها بين جلده والغائط الذي يرتديه. جحظت عيناه، محمرتان، وكل أطرافه ترتعش. تقع عينه على أحد الغلمان

Twitter: @ketab_n

الذين تآمر عليهم مع مناور. نبت كل الأعراب، على حواف روحه اللاهثة. الغلام وقد اشتد عوده، يقف الى جوار عبد الخير، وكأنه سمع عبد الخير، يهمس في أذن الغلام :

- مسكين.

باغت عبد الخير، عمراً، بنظرة لها معنى، ومال على الغلام يواصل همسه :

- إيمان الناس في عيونها.

وبقيت عيون ثلاثتهم تتقاطع بأسى شديد الحياد. نظراتٌ تجمعُ قطرات المطر تحت الأظافر، تعمل منجلها في أعشابٍ قاسية، وتجدف في مصبات طافحة بأنينٍ طويل، امتد لأعماق الغابة، ولم يصغ له أحد سواهم.

سال بداخل عمر مثلٌ من الغابة : (إذا شويت طائراً من السماء أمام دجاجة، فان رأسها سيوجعها).

لمَ استعصتِ الطيورُ على التدجين، ورضخ الدجاج ! البط رضخ، والاوز وقع في نفس المصيدة. فلمَ لا يُدجن الإنسانُ، ليحقق رغبات الأسياد في التملك.

الباشا مستمر في نباح يتقنه الكباريه :

- هاتوا مويه، عبوا السطول.

انهالت المياه تغمره، دافئة رطبة، ورائحة نادرة، وثمينة تتكثف في المكان. وقت يضوعه مسكٌ، آتٍ من وضاعة. ووحده عمر يشم الغائط، والآخرون وجلون، واجمون، حائرون، ينظرون اليه باستغراب بالغ. دخل الباشا نوبة هستيريا :

Twitter: @ketab_n

- خرجوه، أبعدوه، ساحر ملعون.

فهمّ الخدم بضربه. ليطلق ساقيه لريحٍ لم يألفها. ريحاً، حملتْ ما فاح من جسده من غائط استحال لمسك. حين ركض، ركض الضوء داخله، وفرد ساقيه ,كأنه لم يفردهما منذ سنوات. ساق لا تركض يتعفن الضوء داخل حاملها. ركض الصبية خلفه، والسفهاء. وحين يركض السفهاء فأعلم أن السماء ما عادت سماء، ولا الغناء غناء، والعروش كراسي من قصبٍ وملح. وأن الوجود مسه خللٌ لايبين إلا للعارفين.

عدا حتى البحر. ألقى بجسده فيه، وظل يسبح نافراً من الرائحة. كان أسيناناً، وفي الأسى يتدفق ذوو اللون الداكن بكاءً داخلياً، مراً، يجرِّح الروح، بقدر ما ترقُ، أو تقسو. تنتج عن جراح غائرة، يتخثر في ثناياها الحلم، ويتبدل الى قرميد صامت.

في اللحظة التي ملأه شعور بأنه آمن. سار تحت أصيلٍ منح التراب رحمة وحنانا. تناءت وجوه أحبها، تمطت مبتسمة، ورشف بسماتها بابتئاس.

* * *

عندما غطى الظلام جِدة.ألفيتني أشاطئ الملح والماء. بسروال لونه طمي، ورائحة قذرة. افترش رملاً لزجاً مقززا، وصبخة موجعة. بحذرٍ وريبةٍ يقترب مني أحد السمَّاكين، الآيبين من الصيد. سمين، يخفي قميصه الأبيض كرشه، الذي تضغط عليه فوطة ذات ألوان باهتة، تعلو رأسه عمامة بيضاء، أطرافها خطوط داكنة. لا يرى في ظلام البحر سوى بياض أسناني، وفرحة قميصه. عندما اقترب، سألته حزيناً خائفا :

Twitter: @ketab_n

- ماذا تريد ؟

فردَّ غير مكترث، ملقياً بعمامته على كتفه بعد أن مسح بها وجهه:

- جبا يا هو. هلا يا بن عمي.

- اش تبغى ؟

قلتها له مفتعلاً شجاعة.

- أبداً، بس أشم ريحة حلوة، مدري هي مسك ولاّ عنبر !

وأنا أشم بقايا رائحة مقرفة. شككت في وعيي، وقلت : أحد سكارى الليل.

ولكنه اقترب أكثر. يلاطفني، حتى انتزعني من خوفي. شبه سحنته، وتماثل لوناننا، طمأنني. قمت معه لكوخٍ من صفيح. أوقد ضوءاً، تسرب حانياً من فانوس متجهم. أعطاني ثوباً .ثم سألني :

- كيف سكرك ؟

وهو يصنع شاياً.

- أنا أشرب مر.

أجبته. ليضحك، ضحكة ذكرتني بصيادين هرمين، كنت ألقاهم صباحاً يسلتقون على ضفة نهر يحبهم ويحبونه.

مضى ينظف سمكاً، ويقليه. أخرج أرزاً وقال :

- خمسة دقائق وتاكل صيادية من اللي يحبها قلبك.

أنصت بكل جسده لحكايتي، كان يتجشأ سمكاً، وسمعني منذ اللحظة التي طلبتني فيها الزنكلية " ناب الذئب "، حتى اللحظة التي "غامرت فيها بأوجاعي صوب البحر "، ورائحة ما يظنه مسكاً، تلتصق

Twitter: @ketab_n

بي. أقنعني بأن رائحة المسك تفوح مني. وتركني أنام مجهداً على فراش هذه القناعة. بعد أن ردد وهو يتثاءب :

- أخوك معتوق من رابغ، وقصتي طويلة.

تلهفت، وقلت لنفسي سأسمع حكاية، خاطبته :

- نسمع، ترى الليل طويل، ونسته حلوة وتجلي الهموم.

- خليها بكرا، إنْ الله أحيانا.

سكت فجأة، وأنطلق في شخير يليق بالصيادين.

استفاق صبحاً. غادرني مبكراً، وشخيره ما زال يطن في دماغي. أوصاني بألا أبرح مكاني أو أمضي عقباً، حتى يعود.

بقايا ظلمة تحوطني، أبددها بالتفكير (ما الفرق بين الثقة بالإنسان وبين الإيمان، هل ما نحن فيه هو نقيض العبث الذي لم أكترث له. أو تحقيق للابتلاء، هل حقاً أنا مطمئن لمعتوق أم للونه ؟!).

الصباح يطل برأسه، من قميص البحر المبتل بالملح. صباح مشبع بندىً كريه. صباح بائخ في الجفاف. فضلتُ انتظار الضحى، علّ الندى يتطاير. سأنيم انتظاري معي.

قرب الضحى، وقبل أن يكمل الندى تطايره. سمعت جلبة، حسبتها صخب الصيادين إذ يؤبون. غير أني خوتلت بالباشا وأعوانه من جديد.

كان السمَّاك يشير اليّ :

- هذا هو عمر مسك.

فغر الباشا فمه كنعجة تتثاءب.

للباشا سلطان واستبداد بالبحر ايضاً !

Twitter: @ketab_n

تساءلت بحرقة داخلية، وجرعت سؤالي. وآمنت أن الخسة والنذالة لا لون لها. للمرة الخامسة، أجد نفسي كالشاة، أقف معروضاً ربما للذبح هذه المرة، لا للبيع.

ومضيت أعبق بالطيب، ما أن يقترب مني شخصٌ حتى يأنس لرائحتي. فحملتُ (عمر المسك)، وسماً يفضحني حيثما حللت.

أنا عمر المسك. اصطادوني في لحظة ضعف مريرة، وسلبوني حريتي، وحين استرددتها لوقت قصير عادوا فسلبوها مني. لم يسلبوا ما بداخلي.

أشم رائحة القذارة في جسدي، وهم يشمونها مسكاً. أتذكر الآن ما قالت الجارية :

- مو كل مين شم الريحان يقدر يقطفه.

يا الهي.. أهي الدناءة داخلي، تصير مسكاً في أنوفهم ! وأنا أشمها على حقيقتها.

يا الهي.. وحدها أنوف عيسى وميمونة وأمها تميز رائحتي.

سأغيب الآن ، تتبعوا رائحتي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٩ ـ جوش

واقفة، في شرفة وحيدة ببيت السقاف. أطل على الناس. نسيم الفاغية، وضوع العطرة، يرسمان وجه الوقت ورجب يطفح حباً. من كل مكان تدفق الناس. البدو في أطراف المدينة، وأهل مكة وما حف بها. رجبية حطت بهم مشتاقين، يلثمون ثرى الحبيب، ويطفئون تعب العام. ركْبٌ من مكة، ضم طائفيين. أراهم يصعدون المصرع. يستعيدون قصص أُحد. يغص الناس، حول الشهيد، أتذكر من أكل كبدته نيئة، ثم دلق النور لأحشائه فتطهر وصرع الكذاب، ولفه النسيان، تجثم على جثته ".. أغرب عن وجهي " .

يسهرون، يجلو صدورهم وجدٌ نقي، وكل ركب يرفع قصائده :

لاحت معالم طيبة وربوعها
مشوى الرسول وداره وقراره
هذا النخيل وطيبته ومحمد
خير الورى طراً وها أنا جاره
هذي مواضع مهبط الوحي المنى
تشفي القلوب من العمى أسراره
بشراك يا قلبي فقد نلت التي
وبلغت ما تهوى وما تختاره

Twitter: @ketab_n

والمشبَّك يتنقل بينهم حلوى وفرح. يستعذبون الشاي المديني، يصنع من سبعة أنواع. بالنعناع، والحساوي قبل أن تطول أوراقه متحولاً الى حبقٍ نفاذ الرائحة وحار. بالدوش ذي الأوراق المستدقة المطلية بغبار بهيج. أو بالعطرة. وأحياناً بما جف من قشر الليمون، بالورد يراق دمه في الشاي فيجعله مختلفا، بالنوامي أو بالنمام. يتنقلون بين خيارات شاي لا تمنحه إلا تربة المدينة. و يستمرون هنا يذوبون في هوى الريم المديني. حتى يهل شعبان. وفي نصفه أصختُ السمع :

(سيدي شاهين، يا شريبت، خرقة مرقة، يا أهل البيت.. لولا خواجة ما جينا، ولا انطاحت كوافينا، يحل الكيس ويعطينا.. إما مشبك والا فشار، والا عروسة من الروشان).

الى الروشان الذي أقف فيه، صعدت أصوات الصبية ريانة، تتسلق قلبي . نزلتُ. فتحت يدي نافذة. أعطيتهم فشاراً، وشيئاً من تمر الحلية. مضوا يقطرون فرحة، وعيناي خلفهم. كرروا نفس العذوبة أمام الجيران. فلم يلتفت لهم أحد. فإذا بهم يصيحون :

كبريتة يا كبريتة .. ست البيت عفريتة.

ولما قفلوا عائدين. أبصروني في النافذة ذاتها أتقشف، فصاحوا بشكرٍ أبيض :

ليمون ياليمونة.. ست البيت مزيونة.

* * *

خرجتْ من حنين ما انصرم من وقت، وتراخى صوتها حين قالت :

(اسمعي يابنتي، ترى الدنيا زي المنديل، ما هي وسيعة، ومصير الحي يتلاقى، اليوم إحنا هنا، وبكرا هناك، ويالله يكتب لنا حسن الخاتمة، كلنا رايحين، ياكلنا الدود، وما تبقى إلا السمعة الطيبة).

Twitter: @ketab_n

توقفتْ عند اللحظة التي تقيأت فيها " حمص " أبيها، المخلوط بأرز رائحته حنوط. ثم أصابها خرس كبير.

أصغي لستي بكل حواسي، تشدني عبارتها، التي تندس في ثناياها حكمة. في حكايتها سحر وغموض وقليل من الهذر والدجل، عتاد أي حكّاء. كثيراً ما كنت أبرر الغموض بسواقط سببتها الذاكرة الطاعنة في التعتيق، أو ربما رغبة دفينة عندها، بعدم تذكر ما يكشط قشرة جراح غائرة في أعماقها. أرتشف معها الشاي الذي تفضله بقشر الليمون الناشف. أنصت لحكاياتها منذ أن كانت ماءً في ظهر أبيها، تروي لي ما قطفته من فم أمها، وما اختزن عقلها. وكيف أحرجت وصاية السقاف، بتمردها الدائم، سعياً خلف رزقها، ورفضها البقاء متبطلة في بيته الكبير، حتى تبعلت، وأنجبت وألقت بشقاء الأيام تحت رجليها، وابتسمت .

أحياناً تملؤ رئتي بغبار تلك الأيام. قضت أياماً مالحة، مرت وكأنها تعرق فوق صدرها. تجعلها ملحاً، وكثيراً، جصاً يتكسر، ولا يتناثر. اتسعت جراحاتها، والألم سماء أظلتها، ولا يزال الدم ساخن في قلبها، حائر وحانق تحت جلدها. في حكاياتها، يمر الخراساني، والبغدادي، والمغربي، والنجدي، والجاوي والبخاري، والتركي، والفارسي، واليماني، والهندي، والسليماني .. في كل الحكايات والتفاصيل، يغيب التكروني .

- شوفي، يا قدس، إحنا مننا تكارنة، بس الناس تقول كده.

قالتها لي بحدة، قبل أن تفاجئها أم عنبر، نخلية تتصل بالزنكلية. دخلت عليها زاعقة :

Twitter: @ketab_n

- وي يا أختي، اش دا، انت ما تبطلي من الخردة حقتك هادي؟

صويحباتها يشكين دائماً من حبها للاحتفاظ بالأشياء القديمة، تلك التي يسمونها (قرمبع)، حتى الصقن بها الإسم.

غرفتها تحوي أكثر من سحارة. مرة أيقظتني من قيلولتي. بعد أن دهم البيت ماء سيلٍ كبير، سميناه " سيل الربوع "، الذي طاير الجثث والحاجات، وقدمنا وليمة للغربان والنسور في برية عكيشية . شدتني من حلمٍ مرتجف، تصيح فرحانة :

- تعالي أوريك.

فتحتْ كل السحارات. رأيت أشياء شديدة القدم، تنتمي لعصور غابرة. وأخبرتني أن بعضها جمع من الغابة، وبعضها ألقت به سيول المطر، وبعضها نسيه الحجاج، وبعضها لفظته الآبار حين كانت تغضب. ذهلت لما رأيت. قلت وأنا أسعل :

- جدة، حرام عليك، كفاية كده.

وخرجت. فخاصمتني مدة لم تستطع أن تصمد لإطالتها. دفعها شغفها بالحكي إلى مصالحتي. نتبادل الأدوار، مرة تبتزني، ومرة أنا من يبتزها لأجعلها تصغي لي.

حكت كثيراً فملأتْ عمري بالحكايات، ففي كل نسغ مني قصة، وحكاية دستها وأتمنتني عليها. كانت تنثر أبناءها، وأحفادها، حولها وتبدأ قائلة :

- كلكم زي ورد المدينة.

فأداعبها :

- جدة، الورد ينشف .

Twitter: @ketab_n

فترد، موحية أن لا أحد يفهم مقاصدها :

- بزورة دحين ما هم واعين.

وحين ينصرف الكل، مقتنعين بأن لحظات المجاملة انتهت. أبقى وحدي، أنصت لها بخشوع ، تراه بوضوح في عيني. فتكلمني بعد تنهدٍ لاذع :

- قدس حبيبتي، قولي للناس كل اللي سمعتيه مني. حكيهم يابنتي، لا يحسبونا مقطوعين. انتِ فكيتي الحرف أحسن مني، يمكن تقولي شئ.. أي شئ، وكلما أحتجتِ شئ ، افتحي السحارة وعبّي.

من يومها، غرست أصابعي في الدواة، وجدتي ميمونة ينبوع يعبؤه. كل اصبع مررتها على شعري الأكرد شمعة.

أضأت قلقي. خبأت حزني. فتحت جنون التاريخ وقدرته على الزيف، وشرعت أكتب. فأنفلت من مخبئه، وشرع يغلق جفون المدينة، يكبر في شوارعها. صار أعمدة، تضئ الدروب بالظلام. يورق في براري الروح مسافة تتقاصر. تدنو من الترنح والهراء، ليكسو الشحوب البراري. يغادر العازفون، فتملأ الحياة موسيقى الصمت. تضج بصمتٍ يناولنا جراحنا بكل ما حوت من معازف محطمة، وقشورٍ ليس فيها نكهة ما شربتْ جدتي من شاي.

انتهت أم عنبر من عتابها. كأني أتهيأ لخنقها، لتكف عن التلصص، والأكاذيب، وبث الخنوع بين الناس. بدأت تثرثر عن يوميات الحارة، من ولد، ومن طلق، ومن سيتزوج، ومن ضرب زوجته، وطردها في (أنصاص الليالي) كما كانت تقول. ثم تنهي حديثها بـ (يا لطيف). وعندما يجئ ذكر المواليد، تقولان كلاماً مليئاً بالتحريف. ثم تصبان

Twitter: @ketab_n

وابلاً من الثناء على السلطان سيف الذي أذعن لصوت العالم وأوقف الرق. أدخل عليهما بالسماور، مكتظاً بجديد الشاي، جدتي كملكة فرعونية، خلف نصبة تعتبرها مملكتها. أقتم (لم ينته الرق. اختلفت الصورة بس).

- اشبك تبريري ؟

تسألاني. وأتركهما دون أن أجيب. يمتلئ رأسي بالحرب التي تلد الرق وتبرره. روما، الإغريق، اليونانيون، النخاسون، سبارتكوس يخرج قبل الميلاد، يجمع الآبقين في قمة فيزوف ليغنوا آلامهم (سيزيف لم تعد على أكتافه الصخرة/ يحملها الذين يولدون في مخادع الرقيق / والبحر.. كالصحراء.. لا يروي العطش / لأن من يقول " لا " لا يرتوي إلا من الدموع !)

يتصادم كل الماضي في رأسي. فجأة تسمق مظالم. أحاول أن أتماسك، أن أنسى، أتجاوز، فلا أستطيع. " نسامح ولا ننسى "، ناقوس من كلماتها يدق في رواق أيامي.

يدق، ويدق، و كل ما حولي يقودني الى شجرة مسكينة اسمها تاريخ، أجل التاريخ شجرة بئيسة يرويها الغالبون فتنمو، ولا تطرح ما يبهج. أتسلقها، وأفتح جرحاً تراكمت عليه صور بائسة. صور تتدفق من عمق الشجرة، خالية من الحب، لا إطار لها غير شهوة المال، وتجارة الجسد، وتماسيح عطشى، تبلل يباب جوفها بدماء فائرة، منقوعة في أتون قهرٍ لاقرار له.

عرب تجار تخطوا الصعاب عابرين القلزم، مصرين على أن جزيرة العرب كانت امتداداً لأفريقية في العصور القديمة. وكان جدي ممن فروا

Twitter: @ketab_n

من جيش سنداياتا بصحبة تاجرٍ من اليمن، وقالوا إنه شهد انكسار الأخدود الأفريقي ليلد بحر القلزم. تنفصل الجزيرة عن القارة. سمع الفولاني والهوسا والونقرة والبرنو والزغاوة واليوروبا والزبرما والكمبيجو والفوتا وكل المنتمين لغرب الغابة، أذاناً فنزحوا، يتنفسون في بساتين الاسكيا، ثم ينسربون متداخلين بين الأعراب والجاوا والهنود والترك والشراكسة والمصريين والشناقطة والشوام والألبان والبوسنيين والأفغان والمغاربة، فينعتهم الناس بالتكارنة.

الحرب سلم لهذه التجارة، والاعتداء على البشرية، القرية تحارب القرية بحق الغزو تستولي على النساء والأطفال، تبيعهم بأثمان مرتفعة في الساحل وأدغال الغابة، من يرفض الأسر يباد، من ينشد الحرية يباد، لذا تتعثر مراكب شراعية وهي تصيد السمك في جزر حول ثول بجماجم عبيد قدماء تأبوا على الاسترقاق، ومن أذعن منهم خلّف المواليد. يتكاثرون ذوباً في أنحاء الجزيرة، منسلين من الجذور، منتسبين للرقص والزار والطبل، وحين يجحدهم الرمل، يتفرغون للدجل، والشعوذة، ولعق الدماء. أجل الحرب تلد الرق وتبرره، القوي يستعبد الضعيف، المنتصر يسترق الأسير. كلما اتسعت الحرب، زاد عدد الأسرى. لم يكن العرب وحدهم يصطادون، كان بمعيتهم رؤساء عشائر الأبنوس، تستسلم للبضائع، والسلع، ويضحون ببني جلدتهم. فيتوه اغوات الحرم بين الحرمة والرجل، والحقد على كل ذي خصيتين.

جوارٍ وإماء بكل المواصفات والمقاييس..

خصيان في البيوت، ودور السلاطين، سخرة في المزارع، لم يكن لهم أي كيان اجتماعي.. بؤس وقهر.. وكبت جنسي.. وليالٍ من الآلام،

Twitter: @ketab_n

يأكلون فيها سويق الحنطة والشعير مخلوطين بالتمر، طعام الجعلان، وغذاء المتكره، وبلغة المريض، ينفخان ويبطئان النزول الى المعدة. أتوتر، أتساءل: من أسأل؟ من سمع صرخة سبارتكوس، وتوجع لأنين الناتال؟ من مست روحه نيران سفن حشدوا فيها كما الخراف ؟ من امتلأت رئتاه بغبار حراك جبل غراب الصغير في أطراف مكة، حين صُب الماء حاراً، وسلق لحم هاتكي الأعراض، وقت كانت السياط القرشية، تلهب ظهر الحبشي، والقرن الرابع عشر الهجري يطوي دفاتره بخفر؟

أستعيد وجه جدتي وهي تعنف زكريا، وأقول: يا الله.. هل نحن في عمق تاريخ لا ينصف مثلما لا يهمِل ولا يهمَل ولا يبقى غباراً. ولكنه قد يتآمر مع من خالط نفسه صديد الأيام شاهقة الخزي. خزي. خزي. أسب، ألعن، احلم. أوبخ نفسي، الحياة ليست حلما. بل واقع لابد أن نتعايش معه مهما بلغ خزيه.

أعود لواقعي أعرف أنني سأظل أتفرج، وأسمع :

ويالله بنا يا حلوي نسمر

على نسمر

تحت ظل الياسمين

ونقطف الرمان من امه

والعواذل نايمين

نايمين والله.

يخرج زكريا من الحمام مترنماً، يجفف جسده الهائم في اللهو والمتعة. أخاتل غناءه وأسأله عن شجة البارحة.

Twitter: @ketab_n

- يا شيخة روّقي. بسيطة إن شاء الله.

عندما رجع البارحة، متأخراً، كان يتقمص دماً.

بارع في إثارة الحجارة، يدخل علينا برأسه الحليق أبداً، فتسطع الحفر، والسجحات التي أوسمته المشاجرات الدائمة. أحيانا يفاجئنا فيلتحي بلا مبررات، وعندما نسأله : لم؟

يرد :

- لزوم العيشة !

كانت جدتي تحبه، مثلما تحبني، غير أنها تمقت لا مبالاته (آه لو يبطل دشرة وسهر، ويصير آدمي !).

- ترى جدة، زعلانة منك.

أعنفه. فيرد عليّ :

- ليش، اش سويت !

- المزمار.

- حقنا.

ويصيح متلذذاً، ربما نكاية فيّ:

(طير بلا زنقب

كيف ينقب ؟).

أضع يدي على فمه :

- حرام عليك، توها رقدت.

يدفعني إثر سماعه صرخة تحت النافذة :

- يا ابو قلبين، انزل يا دقاق الحجر والطين، يبوه، على اولك.

Twitter: @ketab_n

من كل مكان يفد إليه هؤلاء الذين تسميهم جدتي " الداشرين "، يقودونه لما يؤذي سمعة الأسرة. من حارة لحارة، يجوب الخبوت وقيعان الأودية، والشطآن. يتمرغ في الوحل، يحمل شره، متحدياً، وشونته لا تفارقه. يغيب ولا يستقر. ينقل خطواته في كل براري الجزيرة.

ومرة غاب طويلاً ، فجاءنا خبره، أنه غرق في بحر الدمام. ولما عاد رفيقه الملقب بالأخرش قال :

- في الحبس.

أخبر عنه، ولحقه في الاختفاء سريعاً. لكن زكريا، وكجنيٍ محنك، حطم القمقم، وعاد إلينا بعد سنوات، نافياً أنه كان محبوساً، وصاح في وجه جدتي :

- يحبسوني عشان شراب !

- هادا الواد رايح يجيب لنا مصايب.

قالتها ثم نظرت. كانت ترى أشياء لا نراها. كل جيل يرى بطريقة يطمئن لها، طريقة كونتها أزمنته، وما سف فيها من حنطة وسويق ووجع.

أناولها كوباً من السحلب وأقول :

- الله يهدّي سره. ادعي له يا جدة.

تبسمت، وهي تعود لطفولته، يوم أن قالوا له : افتح فمك.

وقت أن لفته الحمى، نظروا تحت لسانه، فأراعهم خيط أسود. فصاحوا :الملعونة.. الملعونة.

كانت " الجمبة "، كما كانوا يسمون التهاب الرئة. اختفت

Twitter: @ketab_n

ابتسامتها، ظهر ما تعتق اختباءً في عينيها. بعد صمتٍ وإلحاح مني، تذكرتْ، كيف جاء " زبن بن جزي " وكواه سبع كياتٍ، قال عنها: كل كوية في مظانها.

ثم أوصاهم صائحاً : لا ياكل الدسم ولا اللحم، ياكل فطيرة جمر وعسل ، والموية اغلوها، خلوها لين تبرد حطوا فيها هذي.

ناولهم " شبة سودة "، وغادر موقناً من شفائه.

أسألها : ليش الشبة السودة يا جدة ؟

- وي، تقشع البلغم والدم، وتصفي الصدر.

استعادت بسمتها وهي تنطق : كنت أسقيه المرقة، وأمسح على راسه وأنا أتلي.

- اش تتلي ؟

- قرآن، بلا مجاغة، يا بنت.

كبر، وكبرتْ مآسيه. الجوش حبه الأول، يطارد قرع طبوله في كل مكان، يحرث حارات مكة، ووادي المدينة، يرقى جبال الطائف ويطرح في أوديتها زوماله، ليعود من هذه الأمكنة متشمماً كل أنواع الدم، حتى أخافني لأنه صار يعرف أعراق الناس من رائحة دمائها، يقسم لي على ذلك، ثم يهمس في أذني أن منظر الدم يخيفه، ولكنه يتلذذ برعب الآخرين من تحليق النبوت بين يديه، وهو يدور حول النار كعنتر زمانه كما قال مرة. فيه خليط من نوازع شتى، لاهو بالشرير أبداً، ولاهو بالوديع مطلقاً، واحد من تلك الكائنات التي لاتعرف مشاعرها، ولا تتوقع لها تصرفاً معيناً، كان يختفي خلف قناع يداري كل ما تساوينا فيه. كان فعلاً (أبو قلبين) كما أطلق عليه مريدوه المقربين منه.

Twitter: @ketab_n

رغم ذلك كنت أقرب الناس اليه بعد أن لفظه الجميع في الداخل وأغلب من في الخارج. كان يتسكع في كلامه المسك، والباشوات، والكباريه. ينساب حديثه حافلاً بالطرف والدعابة، بذئ اللسان، لكن حدود بذاءته تقتصر على صحبته. يستحيل لعاصفة من حنان بُعيد الموسم، فيهبني كل ما وَسَّم. وعندما أعترض، يرد عليّ :

- أخوكِ دندون، لا تخافي عليه.

حقاً، كانَ قادراً على تدبير أموره، وتسيير حياته بما يحقق له مزاجه الخاص، عرفت ذلك مبكراً، ولم أحتج لفهم ما تعنيه كلمة " دندون ".

تغادر أم عنبر، بعد أن غاصت عميقاً في الجرح، فللعجائز قدرة خارقة على التوغل في الجراح دون أدنى تألم لهن. علّمها السنون، أنضجتهن وقادتهن لمسافة يضعون فيها فاصلاً بين ما هو جارح وبين ما هو مؤلم. لهم طريقتهم الخاصة في التفريق بين الجرح والألم.

تستفيق جدتي من إغفاءة عابرة تتعاطاها عقب ما هو جارح. أجلسها. تحدق فيّ طويلاً. تريد أن تقول شيئاً. طوال عمري معها كانت تحكي بتشويق، ولكنها توجز. فبدا لي أن لكل إنسان قدراً محدداً من الكلمات. تحكي وكأنها تحترق.

كنت أخشى أن تموت قبل أن توصلني للباب. عندما يداهمني هذا الهاجس، أتذكر ما دونته عنها في فترة مبكرة (إذا مات شيخ في الغابة، قالوا: اليوم احترقت مكتبة). جدتي هي مكتبتي وقائدي للباب.

باقتضاب لا يجيده إلا الحكائون المهرة، حدثتني عن علاقتها ببيت السقاف. ومنه تلقت نبأ أبيها. لم تشهد مصائر أقاربها كلهم. بل سمعتْ، وأنا منها سمعتُ، فقررت أن أتقمصها، وأحكي.

Twitter: @ketab_n

تذكرت القرمبع، ورأيته مناسباً جداً للبداية. عندما وصلت لأم عنبر، اكتأبت بشدة، وقلت بحنق: منع سيف. لم يتغير شئ، اختلفت الصورة فقط.

اغتسلت بضوء الكتاب، صليت نافلة. بين يدي حلمي. هل أملك غير حلمي. ما لون حلمي؟ أيشبهني؟ لا.. لالا، الحلم كالإنسانية لا لون لها. ماذا لو كان للحلم لوني؟ ستختلف الصورة. ربما أكون واهمة، ربما لم أستوعب جيداً، ربما فاتني مهم من حكاياتها، ربما لم أع ما حمله ناب الذئب، وما أضمرته وادعة،وما ارتكب المسك من موبقات. ربما، وربما. ربما (امتلك حلماً). لكن " لوثر " امتلك حلمه في مكان واضح حد السفور، وحلمي ينبت في مساحة مكتظة القتامة، مترعة بالضلال، زيف يمشي على قدمين كسيحتين. حلمي لن يقوى على هاتين القدمين، لن يخرجني من ضنكي، أو يذيب قهري الدبق. زكريا وحده ينتزعني من الكآبة، يغافل أحاسيسي فيبعدني لحظات عما يزهر داخلي من أوجاع. كان يصطاد الفرح من مكمنه. يخرجه من عمق الألم، ويطلقه طيراً يغرد ببهاء وشجاعة. أبداً لا أستوعب كيف كان يفرح، دائماً كان يتركني أفكر، بأن كل الأماكن الواجمة لا تخلو من نوافذ مسرات لا نبصرها الا بالحب. بالحب كان يجابه قسوة الميادين، نعم أذكر تماماً أنه الوحيد الذي علمني، أن ليس في الحياة ما يستحق أن نحزن لأجله. جدتي كان لها نفس المنظور. لكنها تنطلق من يأس، وخوف، وإحباط، ورجاء. كان قلبي عارياً أمامها، فأستسلمتُ لقناعتها. قد أخرج الآن علٍّ اصطاد ولو قليلاً مما اصطاده زكريا. أقذف بقناعات جدتي في قاع سحيق، لبئر لم

Twitter: @ketab_n

تعد تروي، أو تقول ماءً. لكنهم لن يبصروني، سيلصقون أعينهم في أدمتي، قبل أي شئ، ويروننني جملة متطفلة على الشوارع، غيمة داكنة تشوه ضحكة السماء. لن يستوقفهم عري قلبي، والثآليل التي تتدلى منه، طافحة بعشبٍ مصفر. لن يشموا رائحة ابتسامتي، حتى هي فقدت معناها منذ أن أجدبت. الأرض، وعجزت عن إنبات الحب.

عاجزة، واقعة في حفرة، لم أر أحداً يمد لي حبلاً، وعندما أراه تطيش يدي فأخور.

يا الهي، كيف كان زكريا يتحاشى كل هذا الإحساس، ويُقَطِّرَ الفرح، دافئاً، مرة كالليمون، ومرة كالتوت، ومرة كابتهاج شمسٍ تقتحم قطع الرياب، وتغسل أوراق الشجر بعدل وحنان. الشمس لا تمايز بين الشجر، كل شجرة تمنحها قسطها، وتبقى شمساً. كيف ظفر أبو قلبين بهذا ؟ كيف صادر الحزن المختبئ بحشمة في زوايا عينيها؟ حزناً لم يقبض عليه أحد غيري، لأنني وحدي تمكنت من الجلوس في عيني جدتي. أتساءل الآن وأحسده. ألاّ تلتفت لما حولك ؟ لا تقتنص إلا المبهج، تعرض عن السفلة، وسارقي الفرح، مرحلة بالغة الإنسانية، ربما يعوزها أن تميت مشاعرك، أو تستر قلبك بأوراق النيم. ليتني أصلها، كي أقف في الشوارع المتجهمة، التي أنكرتني، أتأمل برهة صديد أرصفتها المتحجر، بكل ما تحوي من نبذٍ، وضجرٍ، وقحطٍ، وخوفٍ، وصمت. ثم أشيد حلماً أملس، مبرأً من الدنس، مانعاً من أيام تمر علينا لا تبقى الا ما طُهر من أحلام، فتتعثر خطواتنا، وتتصلب أقدامنا في وحل غامق، لا يمنحنا الا اليأس.. أحلم، بأني أحلم. هذا الحلم

Twitter: @ketab_n

يعبئني بغيظٍ شنيع، يجعل دمائي قلقاً يصطفق، أحيد اصطفاقها، ثم أملأ رئتي بهواء صافٍ، لن أمّل التنقيب عن منابته.

أنفلتُ من نَبُّوت زكريا، أخلع وجعي زهرة تلو اختها، وأطلق من حنجرتي قُمرياً يغرد بلا خوف: (إني أحلم...). ثم حين تنصت البرية، أعود أتذكر أن الناس يصبحون كما يحلمون.

ثم أسال: هل أصبحنا كما نحلم، أم أننا لم نحسن الحلم؟!

أسأل.. أسأل.. أسأل.. وأسال.... وبس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفهرس

١ . مجس	9
٢ . الحلول	25
٣ . أخفاف جمال تسيخ	33
٤ . بنت الحجرة	43
٥ . تهاطل صهبة	53
٦ . حلم ضحى مقدسي	73
٧ . سراب مشتاقة	87
٨ . وقتٌ يُضوِّعهُ مسك	109
٩ . جوش	131

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

السيرة الذاتية

محمود تراوري
تاريخ الميلاد : ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م
مكان الميلاد : مدينة الطائف
رقم الهاتف : ٦٧٦١٨٨٩ - ٠٥٥٧٧٢٣٠١ .
العنوان : جدة ٢١٣٥١ ص.ب ١٠٨٣٦٦ . trawri@hotmail.com
بكالوريوس من جامعة أم القرى في الإعلام من قسم الإعلام ١٩٩٣م.

الخبرات العملية

١ - التحق بالعمل الصحفي كمتعاون منذ عام ١٩٨٣م.
٢ - تفرغ للعمل الصحفي بالشركة السعودية للأبحاث والنشر ١٩٩٣ - ١٩٩٨م.
٣ - أسس وأشرف على القسم الثقافي بصحيفة الرياضية ١٩٩١.
٥ - يكتب القصة والمسرح والرواية، ونشر أعماله في كل الصحف السعودية وعددا من الصحف والدوريات العربية.
٦ - صدرت له مجموعتان قصصيتان.
٧ - فاز بجائزة أبها للقصة القصيرة عام ١٩٩٢م عن مجموعته (بيان الرواة في موت ديما).

Twitter: @ketab_n

٨ - فاز بجائزة النص المسرحي المميز بمهرجان الجنادرية ١٩٩٧م.

٩ - فاز بجائزة للرواية جائزة الإبداع العربي بالشارقة ٢٠٠٢م.

١٠ - أحيا سبع أمسيات قصصية في الرياض ١٩٩٢م، جدة ١٩٩٣م، الطائف ١٩٩٣م، مكة ١٩٩٤م، الاحساء ١٩٩٤م، جدة ١٩٩٧م، الطائف ٢٠٠١م.

١١ - شارك في النشاط الثقافي والاجتماعي لرعاية الشباب (١٩٨٤ - ١٩٩٢م) ومثل المملكة في التجمع الرابع لشباب دول مجلس التعاون الخليجي بالاحساء عام ١٩٨٩م.

١٢ - شارك ضمن وفد المملكة في المهرجان السابع للشعر والقصة لشباب دول مجلس التعاون الخليجي بجدة عام ١٩٩٧م.

١٣ - شارك في تأسيس قناة اقرأ الفضائية عام ١٩٩٨م، وعمل بها كاتبا ومراقبا للنصوص ومعدا ومذيعا ومنسقا للبرامج والإنتاج بالقناة.

١٤ - ساهم في تأسيس جريدة الوطن ٢٠٠٠م ولا زال يعمل بها رئيسا للقسم الثقافي بمركز جدة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تتناول وجود الأفارقة في الحجاز على مر التاريخ. من خلال قصة ارتحال عائلة الى الحجاز . وتحكي مكابداتهم . وذوبانهم في النسيج الاجتماعي للجزيرة العربية . وتتداخل الأحداث مع التاريخ والأسطورة . وقصص الثورات للأقليات والمضطهدين عبر التاريخ.

العمل يتضمن قدرا من الفلكلور لمنطقة الحجاز خاصة في شقه الغنائي وكثير من العادات الشعبية .

@ketab_n

ISBN: 2-84305-861-X
9 782843 058615